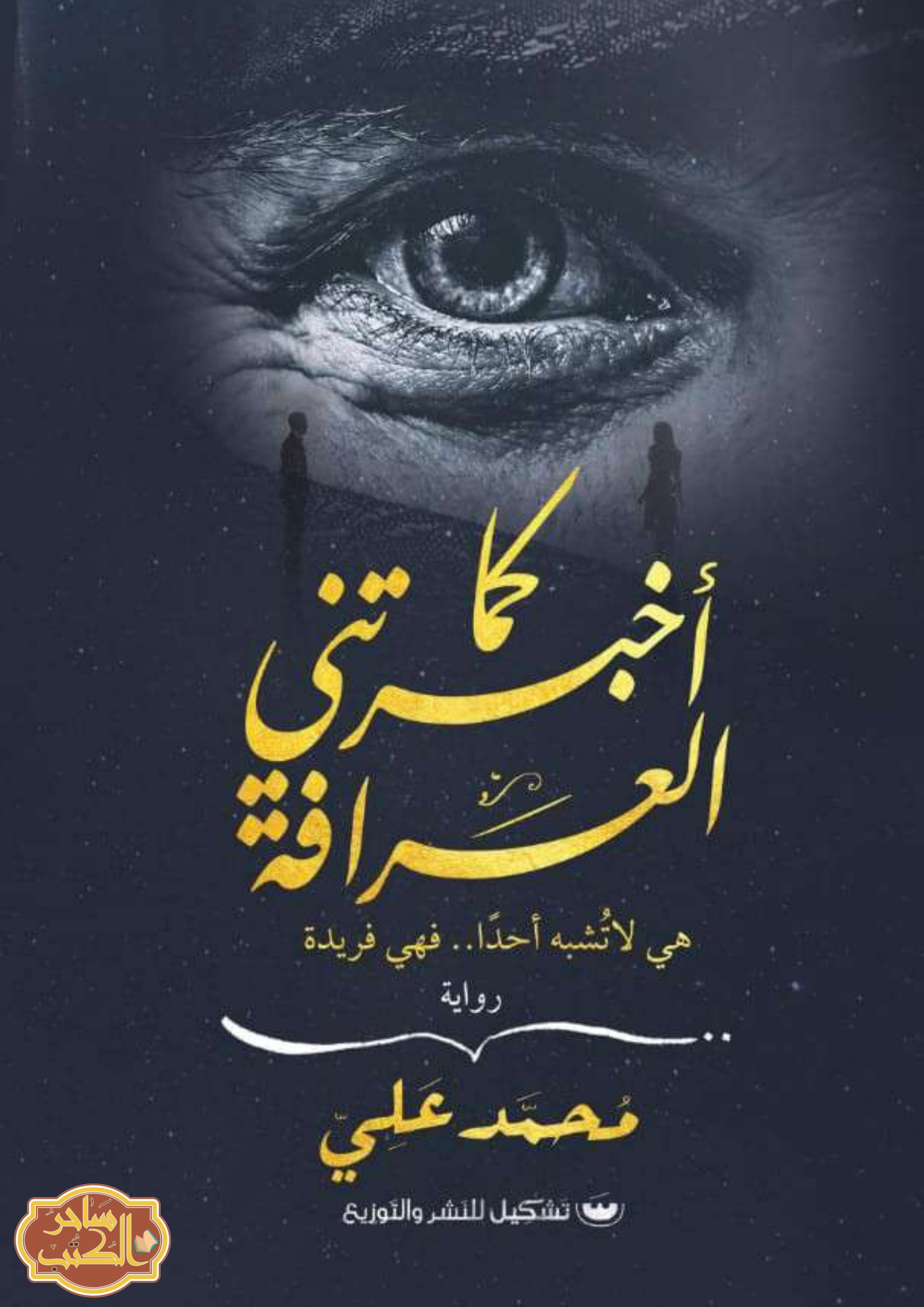

أخبرتني كما العرافة

هي لا تُشبه أحدًا.. فهي فريدة

رواية

مُحمّد عليّ

تشكيل للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

كما أخبرتني العرافة

«هي لا تُشبه أحدًا.. فهي فريدة»

محمد علي

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

تشكيل للنشر والتوزيع

Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkee-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-44-0

رقم الإيداع: 2017/3857

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

تصميم الغلاف : أحمد فرج

التدقيق اللغوي : أحمد المنزلاوي

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المدير العام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

و..

هو..

هى..

أُنا.

ويحدث أن يهبك الله هبةً تُنبتُ أرضك التي بارت فى سنينك العجاف..

لك ولأجلك كُتبت الرواية.

مقدمة..
إلى الأسوَد

عزيزي الأسود.. تحية طيبة وبعد.

ربما كنت أتغاضى دومًا عن ذِكر دورك في حياتي ولكني لا أجد برهانًا لذلك غير أن أنجب ولدًا لأتحدث عنك فقط ! ، لك كتابي هذا فتلقفه بيمينك واتلوه في خشوع فغير مسموح بقراءته فقط.

سيظن البعض أني قد مسني الشيطان وتمكن الجنون مني كي أخاطب لونًا ! ربما يكونوا صادقين ولكن أعلم ماذا أفعل وسأفعل ما أقوله دائما «دعهم يقولون إنك قد صبئت فلربما لن يدخل الجنة سواك».

لست لونًا يا صديقي، فأنت أعظم من ذلك ، فإني أرى الظلام أسود، وأرى الحزن أسود، فكيف بمن وصفوه بركني دنياي أن يكون لونًا فقط ! ، تنزهت يا صديقي عن ذلك.

صديقك الدائم رغمًا عنه:

محمد علي

١٩٩٤

«عـادة ما يكون السـكون التام دلالـةً على أن العاصفـة تتأهب للمجيء في أي لحظة»..

مسـح الحضـور الجالسـين أمامـه بنظـرة متفحصة ثم اسـتقر عـلى وجه يبـدو أنـه يألفـه نوعًا ما، فابتسـم في ثقـة وقال بصـوت جهور فاجـأ الجميع :

- إني داعٍ فأمنـوا، اللهـم اضرب الظالمين بالظالمـين.. واخرجنـا منهـم سـالمين.. اللهـم أصلـح ولاة أمورنـا.. اللهـم أصلـح ولاة أمورنا.

سـكت لبرهـةٍ ثـم عاد ينظـر إلى نفـس الوجه مـرة أخرى وقـد ازدادت نـبرات التحدي عـلى صوتـه وأردف مكررًا:

- اللهم أصلح ولاة أمورنا.

بخطـوات ثقيلـة، نـزل مـن عـلى المنـبر الشـيخ «ياسـين» إمام المسـجد ويبـدو أنـه يتمتم بـأذكار حتى حـاذى الجميـع بعضهـم بعضًا ووقفـوا ثابتين هادئـين كأنـما عـلى رؤوسـهم الطـير ينتظـرون أن يعلـن إمامهـم بدايـة فعلـه لـشيء لينطلقـوا يتبعونـه في طواعيـة شـديدة.

حركات دراماتيكية مقترنة بأقوال مخصوصة تصحبها راحة نفسية، هكذا يطلقون على الشيء الذي تختلف الأديان أجمعها في هيئتها ولكنهم لا يختلفون في وجودها أم عدمها، ولا يختلفون أيضًا في مسماها، إنها « الصلاة »، سبيل الذين يعتقدون بوجود شيء يستحق العناء لأجله في حياة آخرة بعد الموت، ومأوى أيضًا لمن ضاق ذرعًا من حياته فلجأ لها طمعًا في يسرٍ بعد عسر، وعادة قد اعتاد عليها البعض كروتين يومي لا بد منه. ولكن الجميع يتفق على أن الصلاة هي السُلم الوحيد الذى تعد نهايته في جميع درجاته، فأينما وكيفما ووقتما صعدت تجده، ستجد من تصلي له. فعلى الرغم من اختلاف صلاتهم فإنهم يتفقون على شيء واحد، عين ثاقبة تراقب ما يحدث في هدوء تام، ذلك الذي نصلي له ولأجله.

- كيف حالك شيخ ياسين ؟

لم يقطع ذلك السؤال انهماكه في التسبيح بمسبحة يد لا تفارق معصمه. ابتسم دون أن يرفع رأسه وأكمل ما يفعل في خشوع تام حتى قال ذلك الرجل مجددًا:

- ظننت أنك اشتقت إليَّ فجئت إليك مسرعًا.. نفتقدك ونفتقد أيامنا سويًا..اعتقد أنك لن تنساها أبدًا.

رفع رأسه ياسين ولا تزال الابتسامة تعلو وجهه ليقول:

- لا أعتقد أني أتذكرك فإني ادعوا دائمًا أن يرزقني الله براحة البال وأظن أنكما لا يمكن أن تجتمعا سويًا.

- لم تتغير مطلقًا شيخ ياسين.

- ولكنك تغيرت يا حسن بيه ! صرت أقبح من ذي قبل ؟!

ضحك حسن بصوت عال مما جعل جميع من في المسجد ينظرون نحوه فالتفت في سرعة ناظرًا إليهم في ضجر وغضب ثم أعاد نظره ثانية إلى ياسين الذي لم يحرك ساكنًا، ثم همس في اذنه:

- عندما يأتون بك إليَّ لا أريد أن أرى تلك المسبحة مجددًا.. أظن أنك سمعتني جيدًا.

قام وسار في وسط الجموع وكأنهم يفسحون له الطريق ! فطُول قامته وجسده المترهل ينبئونهم جيدًا بماهيته المخيفة، ظلوا يتبعونه بخوف على عكس إمامهم الذي ظل يتتبعه بنظرات تحد وثقة حتى غاب عن الأنظار تمامًا.

*****

قليوب- ١٩٩٤

الليل سرمدي، الهدوء سرمدي، لا شيء هنا يستطيع أن يختلق لنفسه مسارًا مغايرًا فلا تصفه بالسرمدي.

قليوب، معقل بيبرس الحاكم الأول لها، هنا مسجده العتيق وبجواره تشتم رائحة قبور جنوده تزين آثار تلك البلدة. على الضفة الأخرى، مرت مريم العذراء على إحدى البقاع فقدس أهل قليوب تلك البقعة المباركة وبنوا ديرًا وسموه باسمها.

الكل هنا، قليوب؛ معشوقة «ياسين»، حيث سقطت رأسه هنا وتتابعت بعدها رؤوس جميع من أحب.

فرغ «ياسين» من يومه المرهق كعادة أيام الجمعة وخاصة إذا كان بمسجدٍ لا يخلو من المصلين في الخمس صلوات، ولا يخلو أيضًا من السائحين؛ هؤلاء الذين يسترقون صورًا تذكارية ضاربين بحرمة أوقات الصلاة أسفل الحائط. تلك هي عادة جميع مساجد مصر القديمة وخاصة هذا المسجد، مسجد الأقمر القاطن بمنتصف شارع المعز لدين الله الفاطمي.

أعمدة الإنارة القليلة تتعمد دائمًا أن تداعب الشيخ وتؤنسه في كل مرة يعود في هذا الوقت من الليل.

أخذت الأعمدة تتلاعب بظل الشيخ حتى ظهر أمامه ثلاثة ظلال، نعم فللشيخ ثلاثة أرجل.

القدم الثالثة، تلك التي يراها العامة عصًا ولكنه يزدري كل من يقول ذلك، فهي خليلته وصديقته الوفية، لا تكل ولا تمل من السير معه، يتعب ولا تتعب، يقدسها كما يقدس «رحمة» زوجته، لذلك ليس غريبًا عليه أن ينادي على الجميع وهو يبتسم «ناولني رحمة فقد نويت الذهاب»، لا عجب ممن يسمون الأشياء بأسماء من يحبون، فالحب ينبع من قلب وعين وتلكما الاثنين لا يمتلكان عقلًا يميز بين البشر والجماد، بين الناطق وغيره، الحب كذلك لا يعرف أسبابًا أو يؤمن بالأعذار.

يمشي «ياسين» وبيده رحمة يهش بها على الأحجار التي يمكن أن تُعَثِّر طريقه، يحادثها وكأنها تسمعه؛ فمنذ أن أخبره الطبيب أنه لابد للعصا أن تقترن به طيلة حياته وأصبحت من حينها قرينته حقًا، فمنذ أن ضعف بصره قوت علاقتهما، وكلما يزيد الضعف تزيد القوة، تلك هي عصاه، تلك هي رحمة.

البيت قديم نوعًا ما، فقد يرجع بناؤه إلى والد «ياسين» الذي كان يعمل ناظرًا لعائلة «البرماوي»، تلك العائلة التي كانت تملك معظم أراضي قليوب في ظل الإقطاعية قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو وبداية الحكم العسكري لمصر حتى الآن.

بهدوء تام، يصعد ياسين السلم حتى وصل إلى باب شقته وفور محاذاته للباب وجد الباب يفتح وحده ويخرج من ورائه صوت أشبه بلحن قد شرد من «موزارت» وسكن في تلك الشقة :

- حمدًا لله على سلامتك يا ياسين.. لا أسوأ من يوم لا أراك فيه.

بابتسامة هادئة وضع قبلة حانية على جبينها وأغلق الباب:

- تعلمين أن يوم الجمعة يكون مرهقًا نوعًا ما.. وأهل المسجد يودون مجالستي طوال اليوم.. الحمد لله على محبة الناس.

أخذت بيده وصارت به إلى المائدة ليجلس فتأتي بالطعام وهي تقول بثقة بالغة:

- ومن هذا الذي يراك ولا يحبك يا ياسين.

صمت « ياسين» للحظات ثم نظر لها وقد بدا على ملامحه الجدية:

- أتعلمين يا رحمة ! ربما قد ابتلاني الله بضعف نظري الذي يزداد من حين لآخر لكني لا امتلك حق الاعتراض أو حتى المطالبة بالجزاء على صبري ! فمن كافأه الله بك كيف يجرؤ على المطالبة بشيء آخر ! أي شيء ذلك الذي يعادل حُسنك ورحمتك يا رحمة.

ربتت على يديه وهي تبتسم ابتسامتها المعهودة:

- وكالعادة تفوز في النهاية.. لا استطيع الرد على ما تقول فأصمت ولكني تلك المرة لن أصمت.. هناك شيئًا اعتقد بأنه سيغير أشياء كثيرة.

انتبه «ياسين» وترك الطعام ليجدها تطعمه بيدها وهي تقول بحنانٍ بالغ:

- «يَا زَكَرِيَّا أنا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا».

لم يفهم «ياسين» ماذا تقصد في البداية، ولكن سرعان ما فتح عينيه على آخرها وأخذت الكلمات تتصارع لقول شيء ما ولكنها لم تفلح جميعًا في الاصطفاف وتكوين كلامٍ يُفهم! فصمت، ولكن دموعه لا تعرف طريقًا إلى الصمت أبدًا.

رفع رأسه إلى السماء وكأنه يحدث ربه بأشياء لا يسمعه سواهما، ثم ذهب بعيدًا بذاكرته إلى أربعين سنة ماضية وتحديدًا في الرابع والعشرين من نوفمبر حين أطلق صرخته و بدأت رحلته من حينها.

ياسين.. الناجي الأول.

و..

نوفمبر ١٩٥٤

أنا ياسين.. الناجي الأول.

لم تكن طفولتي تؤمن بكونها طفولة، لهذا نعتتني أمي بالناجي الأول.

أمي، سيدة أهل الأرض جميعهم في نظري. أنا ولدها السادس وبرغم ذلك كنت أكبر إخوتي سنًا. مات أبناؤها الخمسة قبل أن آتي تِباعًا حتى لقبها نساء البيت فيما بينهم بـ«النحس». تتغامزن وتتلامزن دائمًا فيما بينهن حتى إذا طلعت عليهن يصمتون ويتظاهرون بخوضهن في حديث آخر. تلك هي عادة بنات حواء، يتحدثن في كل شيء دون أن تفهم شيئًا ! إلا إذا أرادن لك أن تفهم ويؤذن لك بفك شفرات أشبه بمخطوطات قديمة لم يُعثر على كاتبها بعد. تحملت أمي كل ذلك دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ولكنها لم تلق بالًا بأن كتمان ذلك الحزن بداخلها سيقضي على الأخضر واليابس ولم يكن هناك شيئا بداخلها سواي. تسع أشهر من ألآم الحمل تراود أمي عن يمين ولا يخلو شمالها من ألآم حديثهم عن موت إخوتي الذي لا يلام عليه أحد، يلام صاحب الذنب على ذنبه فقط فما ذنب أمي في ذلك! وصاحب الذنب جل عن وصفه بالمذنب وحاشا أن يسمى فعله ذنبًا، له الكل والكل له، يحي ويميت من أراد، وإذا أراد شيئًا فما كان هناك متسعًا من الحرية لذلك الشيء، فإذا ما نفذت إرادته فالمصير يتجه إذن إلى كلمتين لا ثالث لهما.. كن فيكون.

الرابع والعشرون من نوفمبر عام ١٩٥٤، كان ذلك الوقت مناسبًا لإطلاق صرختي فيسمعها جميع من في البيت. تباينت ردود الأفعال حين ذلك، فتوقع النساء اللاتي نعتن أمي بالشؤم موتي أيضًا، بينما بدا أبي غير مكترثٍ بما يحدث وأعتقد أنه توقع موتي هو الآخر. كفر الجميع ببقائي إلا أمي، آمنت وحدها بي فما كان من القدر إلا أن يؤمن هو الآخر.

ولدت هنا.. قليوب، في بيت يرجع أصله إلى جدي الذي أمر بمكوث جميع أبنائه وأحفاده في هذا البيت. البيت ضيق جدًا على الرغم من مساحته الواسعة، الكل مقيد هنا، أقفال على العقول والقلوب ولا يملك مفتاحها إلا رجل واحد، ناظر جميع أراضي عائلة «البرماوي» وهذا ما يعني أن ذلك الرجل يمتلك بيده الأمر والنهي في معظم أراضي قليوب، إنه جدي.

صارم، قليل الكلام، يفطن الطريق جيدًا إلى التفريق بين أبنائه في المعاملة والعطاء، حتى في الإرث أيضًا.

كان أبي أكبر أعمامي سنًا ولكنه أبعدهم عن جدي، لا أعلم السبب لذلك ولا أريد.

تربيت هنا، في ذلك البيت الواسع ذي الأسقف الشاهقة، وسط كم هائل من أبناء وبنات أعمامي حتى توالت النجاة بعد ذلك. كنت الناجي الأول الذي فتح بابًا للنجاة وتركه خلفه غير موصد. أنجبت أمي إخوتي تباعًا حتى أصبحنا ولدين وبنتين، أنا أكبرهم سنًا ولكن أضعفهم جسدًا، لم تدرك أمي أن حزنها ووجعها سيترك فيّ أثرًا لن يمحى طيلة حياتي، لم تدرك أن دموعها التي حبستها بداخلها ستستقر في عيني أنا، لم تدرك أمي أن سأعاقب على ذنب لم اقترفه أنا أيضًا.

ولـدت ضعيـف النظر، ولم يكن غريبًـا على طفل لم يجاوز السادسـة بعد أن يتأهـب لعمليـة جراحيـة في عينيـه ليتعـين له اللعب مـع أصدقائـه مثلهم، عـذرًا لا لأكـون مثلهـم بـل يكفـي أن أراهـم جيدا واسـتطيع السـير وحدي دون أن يضايقـوني بكلـمات لم تذهـب من عقلي حتـى الآن..

أسـهمت العمليـة بشـكل كبير في إمـدادي بسـنوات أخرى مـن النور، أخـبرني الطبيـب بعدهـا أن النظـارة سـتلازمني طيلة حيـاتي ومـن وقتها وقد شـعرت بـأن لا سـبيل لي سـوى ذلك فلابـد من التعايـش إذن.

أتذكـر يومهـا جيـدًا، جاءتني أمي وأنـا بغرفتي أمسـك النظـارة وكأني أحادثهـا فجلسـت بجـواري وقالت وهـي تشـير إلى النظارة:

-عليـك يا بنـي أن تعدها جـزءًا منـك وأن تحبها، فالحب يا بني يسـهل الطريـق إلى كل شيء، أأخـبرك شـيئًا؟ يمكـن لك أن تسـميها باسـم شيء تحبه وهذا سـيجعلك تدريجيًـا تحبها.

بتلقائية طفل لم يتم ستٍ بعد، قلت مبتسمًا:

- سأسميها نعمة.

ابتسـمت أمـي في حنان شـديد وضمتنـي إلى صدرهـا فأغمضت عيني التـي كانـت مغمضـة بالفعـل، أخـذت تتمتـم بأشـياء لم أسـمعها ولكنـي شـعرت بهـا، ومـن حينهـا أصبحـت أنـا ونعمـة صديقين لـن يفترقـا إلا عند الموتتـين، مـوت أكـبر لم يحـين وقته بعـد، وأصغـرُ قـد راودني وأنـا في حضنها فخضعـت لـه، مِـتُ موتًـا أصغـر تسـمونه النوم.

الأشياء من حولي تتغير تدريجيًا، بدأت أرى الأشياء أمامي عبر صندوق زجاجي رغم أنهم في مكان آخر،أصبح كل شيء يدور إلى التطور حتى عيني، فكلما يزداد النور في عقول العالم يقل في عيني. كلٌ ينطفيء بالتدريج، حتى هوايتي الوحيدة في قراءة الصحف أصبحت من أدوات التعذيب. ولكني لا أنكر أبدًا أن ما نقص من عيني زاد في أشياء أُخر، فمنذ صغري وأنا أكثر الأطفال في الكُتَّاب حفظًا للقران وأسرعهم تذكرًا. لم يقتصر حفظي على القران فقط، فلقد كنت أحفظ الأشياء التي أريدها بمجرد سماعها، وكانت تلك هي وسيلتى الوحيدة لأنهي دراستي كطالب في كلية الشريعة والقانون. الاختلاف جيد نوعًا ما، فلم أكن كسائر الطلاب أُذاكر الكتب بقرائتها! فقد كانت لي أساليبي الخاصة؛ الكاسيت وأصوات أصدقائي المنبعثة من الشرائط الكامنة بداخله يكفيان تمامًا لأمر مرور الكرام من سنوات الدراسة. لم يكن الطريق سهلًا أبدًا، ربما عليك أن تجتاز بعض الصعوبات قبل أن تصل ولكني لم أواجه بعض الصعوبات مثلكم بل واجهتها جميعًا.

أخذ الروتين والرتابة يستمتعان بالقضاء على شغفي تجاه الحياة، حتى بعدما عُينت إمامًا لمسجد كبيرٍ وآثري بشارع يمتاز بنفس صفات المسجد، مسجد الآقمر بشارع المعز لدين الله الفاطمي.

المسافة بين قليوب ومصر القديمة وركوب المواصلات يوميًا في ظل ذلك الضوء الخافت الذي أرى به؛ أسباب كافية للمعاناة، ولكني لم أكن أمتلك خيارًا آخر، فبعدما مات جدي توارث أبناؤه كل شيء ولم يكن مفاجئًا أن ينال والدي الحظ الأقل من الإرث، قسموا البيت إلى بيوت أخرى وبنوا جدارًا عازلًا بين كل شيء، لا في المكان فقط بل في القلوب أيضًا.

حتى أتت رحمة..

كانت كالمظلة التي وقتني شر نهار مشمسٍ لا ينتهي. ربما تكون هي الوحيدة التى لا احتاج لعينين لأراها، أعتقد أني أمتلك بداخلي مستشعَرًا خاصًا بها، أراها دون أن أرى، أشعر بها إذا تعثرت بحجر في المشرق وأنا نائم هنا بالمغرب.

كان زواجنا تقليديًا كما يسميه البعض ولكني لا أعلم طريقة للزواج غيره ولا أؤمن بغيره أيضًا. كان البصيص المتبقي بعيني كافيًا لأدون بداخلي تفاصيل وجهها التي لم تغدوا من قلبي وعقلي ووجداني من حينها. أسهمت صداقة أُمَيْنَا بشكل كبير في إتمام الزيجة غير أني لم أكترث أنها تكبُر أخواتها سنًا والوحيدة التي لم تتزوج بعد، ربما كنت ضعيف البصر وقتها ولكن ماذا فعل المبصرون؟ تركوا رحمة حتى جاوزت السادسة بعد العشرين لتوافق على «شبه كفيف» مثلي، بصري ضعيف نعم ولكن بصيرتي كانت قوية بالقدر الكافي لأرى فيها ما لم يراه الآخرون، واتخذت حياتي مسارًا مختلفًا منذ ذلك الوقت..

٢٤ نوفمبر ١٩٨٤، يوم ميلادي الحقيقي، فإن الثلاثين عامًا المنصرمين لم آتي للحياة فيهم من قبل، أظن أنني كنت في غار اختبئ فيه من كفار الإنسانية، أو نمت في كهفٍ هربًا من بطش ماضٍ متجبر، لا أعلم تحديدًا أين كنت ولكني أوقن تمامًا أني ولدت يوم أصبحت رحمة تتكفل ببناء خيمة على كتفيها لتستريح عليها رأسي المتعبة.

أصبح الظلام يقل في استيطانه لرؤيتي، زادت رغبتي في الغد، أريد أن أعيش كأني لم أولد من قبل، لا يهم أن أرى شيئًا فهي ترى.

تغير كل شيء واتجه في المسار الذي لم أألفه من قبل عدا شيئًا واحدًا؛ مجابهتي للظلم من على منبري، لا أخشى أحدًا. وعلى الرغم من أن تلك الفترة المظلمة من حكم مصر كانت تتميز بتكميم الأفواه؛ فإن صوتي يصدح عاليًا في الأرجاء هنا وهناك.

كان المسجد ملاذًا دائمًا لعشاق الدبابير المعلقة على الأكتاف. ينتابني القلق عندما لا أنعم بزيارتهم الكريمة كل يومين ليأخذوني إلى هناك لأخبرهم برأيي في ألوان الحوائط الجديدة.

لم يجرؤ أحد من ذلك النظام العفن على عزلي من المسجد نظرًا لمحبة أهل المسجد لي وكانت لتقوم ثورة لأجلي لن يفلحوا في إخمادها أبدًا.

الدين سياسة، والسياسة درب من دروب الدين. وهذا المنبر سبيل مهم لإنارة العقول والقلوب معًا، وجبانٌ ذلك الذي بيديه سيف ويملك بساتين من التفاح ولا يطعم المساكين منه، المغلوبين على أمرهم، الضعفاء. هؤلاء الذين أخذوا بظاهر «أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ولم ينتبهوا إلى المعنى الكامن بداخلها فقد جاء ذكرهم بعد الله ورسوله لبيان أنهم يتبعونهم وحاشا لولاة أمورنا أن يفعلوا ذلك. لذلك، أنا لهم بالمرصاد، وأهل المسجد خلفي، أنا إمامهم الذي يرى صغيرهم أني أبوه ويرى الكبير أني وَلده الذي تمنى دائمًا آن ينجبه. كنت أخبئ عليهم زياراتي الدائمة لمراكز المخابرات وأمن الدولة كي لا يثار قلقهم ويبدو أنني قد تعودت أيضا على ذلك. آلاف التهديدات التي رمتها إلى أعينهم

وأسلحة الردع التي طالما رأيتها منصوبة في كلامهم وتحذيراتهم ولكني كنت أبدو إمامهم كديك الصباح، هادئ ليلًا، أما بالصباح أصدح بالصياح في كل مكان، وصباحي هنا، على هذا المنبر.

ربما كانت جميع الزيارات تشبه بعضها إلا واحدة، أتذكرها جيدًا..

كنت بالمسجد استعد للمغادرة وإذ بشابين يافعين ينتظراني بالخارج وفور ما رأوني أسرعا إليَّ ومد أحدهما يده قائلًا:

- دعنا نوصلك الليلة يا شيخنا.

ابتسمت لهم، علمت ماهيتهم من تلفتهم يمينًا ويسارًا، لم أتردد لبرهة واحدة وذهبت معهم. لم يغلقوا عيني طول الطريق لأنهم يعلمون أنها تكاد أن تكون مغلقة بالفعل.

فور ما وصلنا إلى المكان الذي ربما أذهب إليه أكثر من المرحاض، سمعت صوتًا قادمًا من آخر الغرفة، صوتًا يبدو أنني أسمعه للمرة الأولى، هذا ليس بصوت العقيد «ثروت السمان» ولا بصوت النقيب «مدحت الوايلي»، كان الصوت أجشًا مر في أذن تلكما الشابان قائلًا:

- اتركوه.

تركاني وخرجا كأن القطار يقف بخارج الغرفة وسيتحرك منذ ساعتين.

ظهر أمامي صاحب ذلك الصوت، بدا رجلًا عريض المنكبين، شاهق الطول، مترهل الأطراف، ذا عينين ثاقبتين كرَامٍ يترقب طيران الفريسة في أي لحظة.

لم يجلس أمامي كما فعل أصدقاؤه السابقون، سحب كرسيًا ووضعه بجواري وجلس وهو يشير إلى المسبحة التي أظل دائمًا أطوف بأصابعي نحوها وقال:

- جميلة تلك المسبحة يا مولانا.

نظرت إليه مبتسمًا كأنني أملك عينين أراه بهما جيدًا:

- أعلم.

قام من مجلسه ومد يده إلى الهاتف القابع على مكتبه في آخر الغرفة وأشار لي بعد ما رفع السماعة على أذنيه:

- ماذا ستشرب يا مولانا ؟

لم أتردد لثانية واحدة وقلت بهدوء:

- علمتني أمي أن لا آكل ولا أشرب في المرحاض.

لم يكن ردي مدهشًا مثل رده بعدها، فكأنه لم يسمع شيئًا وطلب قهوته المعتادة وعاد ثانية إلى جواري ولكن تلك المرة كان يحمل بيده أشياء لم تكن واضحة لي جيدًا ولكنها تشبه الأسهم. تأكدت من ذلك حينما وجدته يمسك بتلك الأشياء ويقذفها بعنف تجاه الباب ولكن صوته كان رصينًا:

- شـيخ ياسـين.. لابـد لتلـك المهزلـة أن تقـف الآن.. إن كان زملائـي طيبـين فاعلـم أننـي لا أملـك قلبًـا يقـف في طريـق شيء في صالـح هـذا البلـد.

لم اتمالـك نفـسي ممـا سـمعته مـن هـراءٍ وضحكـت بسـخرية ونظـرت لـه:

- صالـح هـذا البلـد! حقًـا! أنتـم تريـدون صـلاح هـذا البلـد! ربـما تقصـد أيضًـا أني سـبب خرابهـا!! الآن علمـت لمـاذا أخـذ الله عينـي، فـماذا فعـل مـن يملـك عينـين؟! الحمـد لله أني لا أحتـاج عينـان لأرى الحـق بهـما، وآه نسـيت أن أخـبرك؛ لقـد سـمعت مـا قلتـه أنـت مرتـين مـن قبـل، وهـا أنـا أمامـك الآن يبـدو أننـي سأسـمعها للمـرة الرابعـة.

ثـار غضبـه وصـاح بأعـلى صوتـه ليـأتي الشـابان مـرة أخـرى ولكـن هـذه المـرة يبـدو أنهـم أتـوا بصحبـة أبويهـم أيضًـا. أمرهـم بزجـي في بيتـي الثـاني الـذي أشـتاق إليـه كثـيرًا؛ الحبـس الانفـرادي.

ربـما يخـاف الجميـع مـن الظـلام هنـا أمـا أنـا فـلا أمـلّ مـن أنيـسي وصديقـي الدائـم.. الأسـود. ذلـك اللـون الـذي اسـتوطن داخـل الألـوان جميعهـا فأصبحـت أرى الألـوان جميعهـا تـؤدي إليه. هذا السـجن الـذي أراه رغـم ضيقـه فهـو واسـع إلى مـد بـصري الـذي لا أملكـه، أرى الجنـة خـلال ثقـب البـاب الـذي يقـف وراءه جند أبليـس، هؤلاء الذيـن لم يمتلكـوا عقلًا يومًـا يميـزون بـه أن إبليـس لـن يدخـل الجنـة فكيـف بجنـوده.

طالت تلك الفترة التى قضيتها هنا عن أخواتها السابقين حتى شعرت بأن القلق قد أكل ما تبقى من «رحمة» من صبر وأهل المسجد كذلك، وربما شعروا بذلك هنا أيضًا لذا وجدت باب الزنزانة يُفتح وإذ بذلك الرجل يدخل بعدما نادى عليه جنده الأمين:

- تفضل يا حسن بيه.

دخل علي مبتسمًا كأن شيئًا لم يحدث، لم يقل سوى كلمات قليلة وانصرف دون أن ينتظر مني تعقيبًا عليها وأشار لجنده أن يخرجوني.

أتذكَّر ما قاله جيدًا وهو يهمس في أذني مبتسمًا:

- لو أنك لا تخاف على نفسك فخف على بيتك.

لم يجرؤ الباقي على تحذيري كهذا من قبل، ولكنه يبدو مختلفًا عنهم.

أوصلني ذلك الشابان إلى المسجد مرة أخرى وكانت الشمس قد تعامدت بمنتصف السماء لتعلن دخول وقت صلاة الظهر. دخلت المسجد فوجدت الجميع يقدمون نحوي مسرعين فابتسمت لهم جميعًا وأخبرتهم بأني كنت مريضًا ولم أكن قادرًا على المجيء، ربما صدقوني جميعهم عدا «جابر» مؤذن المسجد أو كما أسميه «بلالنا»، يبدو أنه ذهب إلى بيتي ليطمئن علي ولم يجدني نظرًا لأنه الوحيد الذي أوصلني للبيت كثيرًا.

فرغنا من الصلاة وعدت إلى البيت مسرعًا وبداخلي دافعٌ قاتلٌ بأن ارتمي بين ذراعي «رحمة» فقد مللت من تظاهري قويًا. وهذا ما حدث.

أتذكَّر أنني لم أقرع على الباب سوى مرة واحدة حتى فتحت كأنها كانت تجلس بجواره، وما أن فتحت حتى وجدت ما توقعته، نال القلق منها وأخذ النوم من جفونها فلم تنم، رأيت ذلك عبر البصيص الصغير المنبعث من عيني. وبرغم كل ما بها؛ فتحت ذراعيها لي وابتسمت فهرعت إليها تاركًا كل شيء، فهنا موطني ولا أعلم لي موطنًا آخر، هنا ولدت وهنا أموت وهنا أبعث حيًا، فكأنها خلقت لتكون لي كأخ يوسف الذي حال بينه وبين الموت واقترح برميه في غيابات الجب، أو كأنها ككبش إسماعيل لي، أو أنها كأمر الله للنار ألا تحرق إبراهيم، فكأنها خُلقت لتكون أُمًا وسندًا ووطنا..

لم يأت أحد من هؤلاء العاملين بالمرحاض طيلة شهرين رغم أني لم أغير حديثي ولم يثنيني ترهيبه عن ما أفعل، ما زال المنبر صوته عالٍ بالحق، حتى أول جمعة بعد الشهرين من زيارتي الآخيرة لهم، أتذكَّر تفاصيل ذلك اليوم جيدًا؛لأنه يعد يومًا مهمًا بين أيامي جميعها.

وجدته يومها بين صفوف المصلين مبتسمًا كما عهدته ولا تخلو نواجزه من الغيظ المخبأ بأحكام خلف تلك الابتسامة الصفراء، أخبرني يومها أنه يفتقدني ويفتقد زيارتي المعهودة دائمًا التى تأخرت في الفترة الأخيرة! يبدو أنهم لم يطلوا حوائط جدد فلم يطلبوني ليأخذوا رأيي فيها.

كانت إيماءاته تشير إلى أنني سأزوره قريبًا فلم أهتم كالعادة وعدت للبيت ليلًا كعادة أيام الجمعة المرهقة لأجد رحمة تنتظرني بخبرٍ قد جعلني أغفل للحظات أتذكَّر فيها كل ما مررت به في حياتي ويمر أمام عيني كأنه يحدث الآن، أرى الآن كل شيء بوضوح تام.

تلألأ في أذني اليمنى صوت رحمة الدافئ وهي تقول «يا زكريا أنا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا»، ويسطع صوت «بلالنا» في أذني اليسرى «هذا ما وعدنا ربنا حقا».

زكريا أنا، سنوات كثيرة أنتظر ذلك الطفل، لا أريد أن تنتهي علاقتي بـ «رحمة» في الدنيا بالموت، ففي الآخرة أعلم أنني لن أقوى على طلب غيرها زوجة لي، لذلك أردت ولدًا منها يشد من أزري وعضدي، وقد حدث. لقد ناجيت ربي كثيرًا كما دعا زكريا فاستجاب لي ربُ زكريا كما استجاب له.

شعرت بالخوف، أعتقد أنها المرة الأولى التي أشعر فيها بذلك الشعور، بدأت الهواجس تتناوب على عقلي حتى أهلكتني، أصبحت أفكر فيما سأقوله قبل أن أعتلي المنبر، هم طغاة لن يهتموا بأن ولدي الذي أنتظره ربما لن أراه ولكني حتمًا أشعر به من الآن، هم طغاة لا يرون شيئًا إلا.. لا ليس هناك ما يرونه فهم يسمعون فقط.

تسعة أشهر من الانتظار والتعب أيضًا، فلقد تقدم العمر بـ«رحمة» ولم يكن الحمل هينًا عليها أبدًا.

فبعدما مضى النصف الأول من ديسمبر في تلك السنة «١٩٩٤» وبدأ النصف الثاني بتعريف نفسه كبداية عهد جديد. يوم الجمعة، السادس عشر من ديسمبر، الجميع بانتظاري هنا لأخرج عليهم ليؤذن جابر بالأذان الثاني وأن أعتلي المنبر وأخاطبهم كما أفعل دومًا.

هممت بالخروج من الغرفة المخصصة لي بالمسجد لأجد الشابين مرة أخرى يمسكان بيدي ويهمس أحدهم في أذني قائلًا:

- إن «حسن بيه» يدعوك لتناول الغداء معه بعد الصلاة.. ننتظرك.

خِفتُ حينها، فقد تركتُ «رحمة» يومها تعاني من آلام كثيرة فهذا شهرها الآخير وكدت لن آتي للمسجد اليوم ولكنها طمأنتني كعادتها واتصلت بأختها لتجلس معها حتى أعود، ولكني أعرفها جيدًا، لن تطمئن إلا وأنا هنا إلى جوارها.

أنهيت الخطبة مسرعًا تلك المرة ليأتي الشابان إليّ ويأخذان بيدي حتى صرنا عند الباب لأجد رجلا من أقصى الشارع يسعى، لم ألمحه جيدًا ولكني أفطن إلى هيئته، إنه «إبراهيم» ابن أخت رحمة التي تركتها معها في البيت.

علمت سر تلك الهرولة التي أقدم بها نحوي فالمستشعر الذي بداخلي قد أخبرني بما سيقوله «أدهم»، وصدق حدسي وما كان لشعوري برحمة أن يخطئ أبدًا:

– شيخ ياسين.. لقد أنجبت خالتي معاذًا.

إنه ابني.. وكأنه خلق معاذًا من خطايانا.

هو..

وكأنني خُلقت معاذًا من خطاياكم.. أنا معاذ.. الناجي الأول بعد الأول.

وُلدت لأبوين كالشمس والقمر جعلا مني يوسف، ياسين ورحمة، الأول علمني كيف أحب الله والأخرى علمتني كيف أحب نفسي.

تربيت في بيت لا تنقطع منه أعواد البخور ولا أصوات الهمهمة بالأذكار صباحًا ومساءً.

الهدوء والراحة سمتان تميزان طفولتي في ذلك البيت، في بلدة تعتبر من أهم بقاع الأرض في نظري، قليوب.

والدي، القدوة والمثل الأعلى الذي لا دونه أحد ولا يجوز ذلك لأحد، إمام مسجد كبير بمصر القديمة، شيخي وأستاذي الأول وبطلي الدائم على الإطلاق.

ربما تعد ملامح طفولتي التي أثرت في شخصيتي كثيرًا تتلون في لوحة رسمها أحد أصدقاء والدي من أهل المسجد الذي يعمل فيه عندما أهداني كتابًا وأنا لم أكن قد تمرست القراءة كعادة طفل لم يجاوز خمسته بعد، أتذكر أنه كان كتيبًا صغيرًا لأعداد من قصص كانت تَصدر في ذلك الوقت تحمل اسم» فلاش». تعلمت القراءة على يدي تلك القصص التي لطالما رأيت نفسي بطلها الأوحد. وأتذكر أيضًا أن والدي قد أعطاني مصحفًا وأخبرني بأن القصص التي سأقرأها هنا لن أنساها أبدًا فتعلق قلبي بالقرآن ولم يعرف الطريق من حينها إلى الإفلات منه.

والـدتي، أو كـما أناديهـا مثلـما رأيـت أبي يفعـل منذ ولـدت «أُمتـي». لم أكـن ليتعـين عـليّ فهم تلـك الكلمـة وأنا صغـير ولكنـى أيقنت تمامًـا كم بأبي مـن حب لهـا قـد غمـرني دون أن يقصد.

هـي السـند الذي مـا جاز له الانكسـار أبـدًا حتى وإن وهنـت عكائزه، هـي التـي تعـرف أن لي يـدًا ثالثـة لم يرهـا غيرهـا كي تشـدني منهـا أن كُسرت يـدايَّ الاثنـين ولم أعـد أقوى عـلى التحمل.

كل ذلـك، قـد جعـل منـي ذا قضيـة منـذ صغـري، الأول والجميـع ورائـي؛ في الدراسـة الأول عـلى الصفـوف جميعهـا، في الكليـة رئيسًـا لاتحـاد الطلبـة ويـراني الجميـع قـدوة لهـم، في الكتابـة شـاعر الجامعـة وأُنظـم الكثـير مـن الصالونـات الأدبيـة بالجامعـة وخارجهـا، هـذا وقـد كنـت طالبًـا بكليـة الهندسـة بجامعـة القاهـرة.

كانـت القضية الفلسـطينية تشـغل كل ما بي من أفـكار وأوراق قد أدت بي كثـيرًا إلى زيـارتي المحببـة لأمـن الدولـة. لم أتنـازل يومًا عن وصفنـا برجال نـترك بنتنـا تُغتصـب متظاهريـن بأننا لا نرى شـيئًا وأنهـم شـعب الله المختار. لسـت أنـا مـن يقبل ذلـك، وجميع مـن يراني قـدوة له يـرى ذلك أيضًـا، وكلما تزيـد محبـة الطلبـة لي تزيد زيـاراتي للدبابير كـما يلقبهم أبي.

لا أعلـم مـا كنـت لأفعـل دون «فريـدة»، صديقتـي المقربـة التـي مـن دونهـا مـا كنـت لأعبر مـن سـنة واحدة بهـذه الكليـة، لـن أتحدث عنهـا الآن فسـيأتي دورهـا فيـما بعد.

كقائدٍ له مكانته المرموقة بين الجميع؛ لم أخلو من وسوسات نسل حواء ولكني لم يكن لدي متسع من الوقت كي أعيرهم اهتمامي فكنت اكتفي بالاستعاذة بالله من وسوساتهم.

ولكني لم أفلح في صمودي كثيرًا، هناك لحظة تمر بها بين حين وآخر أن لم تربط على قلبك ستفلت زمام كل شيء، وحدث..

حبيبة، صفتها واسمها، ولدت لتكون تلك هي مهامها الرئيسية في الحياة؛ حبيبة..

تدرس الهندسة أيضًا ولكن في قسم « العمارة» أما أنا فقد نويت أن أدرس بقسم « الميكاترونكس» منذ أن وطأت قدمايَّ هذه الكلية، واخترت ذلك القسم؛ لأنه حقل هندسي واسع ومتشعب جدًا، وهذا الحقل الهندسي يجمع بين الهندسة الميكانيكية، والهندسة الكهربائية، وهندسة الحاسوب والالكترونيات، ويتضمن تصميم أي منتج يعتمد عمله على دمج أنظمة ميكانيكية وإلكترونية، إذ يقوم بدور المنسق فيما بينهما ووضع منظومة تحكمها، يعني ذلك أنني وددت أن أرى الطريق الذي يؤدي إلى صنع إنسان إلى ببساطة ووضوح.

رأيت حبيبة للمرة الأولى في إحدى ندواتي الشعرية، ظننت أنها في البداية أتت لتحضر الندوة بكامل إرادتها ولكني اكتشفت بعد ذلك أنها كانت تنتظر صديقتها التي آبت أن تغادر حتى نهاية الندوة فاضطرت حبيبة أن تجلس وتستمع.

وكما اعتدت دائمًا أن أمشط بعيني الحاضرين أمامي بابتسامة هادئة ولم أدرك حينها أني ظللت لدقائق أقف بنظري عند حبيبة ولم أحرك ساكنًا، لا أعلم ماذا حدث حينها، كانت كالوردة التي نبتت في صحراء جرداء لا تؤمن سوى بشوك الصبار، رقيقة هي كنسيم الفجر، جميلة هي كلا شيء غيرها.

ذهبت إليها ولم أنسَ أن أضع منومًا لعقلي كي لا يمد رجليه ويعركلني فأندم طيلة حياتي أني لم أذهب إليها، ربما لن أرها ثانية وربما تكون غير حقيقية وقد خُيل إلى أنها إنسية، ولربما أيضًا قد قد راودتني أعراض الفصام مرة أخرى فأصبحت أرى ما لايراه الآخرون؛ ماهو ليس موجودًا من الأساس.

وبرغم أني شاب قد تمرس على الحديث أمام آلاف الأشخاص أصبحت ألملم بعض الكلمات لأصيغ عبارة تدل على ما يجري بداخلي، إنها ثورة تجتاح باليابس والأخضر معًا، أقف أمامها صامتًا أنظر في عينيها «الرماديتين» وقد رأيت فيهما ما لم يره عالم فلك قد جاوز عقدين من العمر.

- أظن أني رأيتك من قبل! صحيح؟

بدت مستاءة في البداية، اندهشتُ من ذلك؛ فإنها ليست عادة جميع النساء اللاتي أتحدث معهن لأول مرة، فالطبيعي أنني أنظر في محل سجودي أما هن فلا تتركن في وجهي تفصيلة إلا وحفظنها، ولم تفعل هي ذلك، بل وتظاهرت كأنها تنظر إلى صديقتها التي ربما ذهبت لتفعل شيئًا وقالت:

- لا .. لا أظن ذلك.

أتت صديقتها في ذلك الوقت تنظر لي في دهشةٍ على الرغم من حبيبة التي لم تكن تنظر لي من الأصل، وقبل أن تلقي على صديقتها السلام إذ بحبيبة تأخذها من يديها لترحلا، تركتني واقفًا في مكاني ما زلت أنظر في عينيها رغم أنها قد رحلت!، من وقتها وقد شعرت أن الزمام قد تفلت من يدي ولم أعد قادرًا على الرباط على قلبي كما تعودت.

شهران من البحث غير المُجدي في الجامعة كلها، لم أترك موضعًا إلا وبحثت عنها فيه؛ في أماكن المحاضرات، في الندوات، في المطاعم، حتى مكتبات تصوير المستندات لم أبرحها!، لم يكن عليّ سوى الانتظار ولم يكن على صديقتها سوى أن أرها صدفة، تلك الصدفة التي طالما سميتها دربًا من دروب القدر..

تخليت حينها عن ثوب الرزانة والوقار وهرولت إليها مسرعًا لتقف أمامي صديقتها مبتسمة يعلو ملامحها شيئًا من الأمل غير المجدي فقلت دون تفكير:

- أين هي؟!

لترد هي بهدوء قد مر بي مرور الرياح الباردة:

-لا أعلم.. لم تأتي الجامعة منذ شهرين.

- أعلـم ذلـك فقد بحثـت عنهـا في كل مكان طيلـة الشـهرين الماضيين ولم أجدها!

اندهشت قائلة:

- ولماذا تبحث عنها؟ أتريد منها شيئًا أبلغه لها ؟

رددت بحدة بالغة:

- يعني ذلك أنك تعرفين مكانها ليس كما ادعيتي منذ قليل!

تلعثمت، وهمت بالمغادرة ولكني لم أتحرك من مكاني ولم أمسك بها، فلا زلت أنا، لم ينزلق عني رداء الوقار كله بعد، لتعود إلى تقدم قدمًا وتأخر أخرى لتقول كمن يبحث عن نجدةٍ:

- حبيبة تعلم أنك تبحث عنها لذلك لم تأتي.. لا أعرف ماذا أقول لك ولكني واجب علي أن أحذرك.. لا تحاول الاقتراب منها فلن تكون العواقب جيدة أبدًا.. رغم أني أرجو ذلك.

قالت لي ذلك ورحلت، لم أفهم تحديدًا ماذا تقصد ولكن بطبعي العنيد ما زادتني تحذيراتها إلا إرادة، لم أعتد على الانسحاب من حرب قبل أن أُهدى بجرح حتى وإن فزت قبل أن أخوض الحرب.

في ذلك اليوم قبل أن أغادر تتبعت المكان الذي ذهبت إليه صديقتها لأصل في النهاية إلى قسم «العمارة» بكليتنا! شهرين من البحث في جامعة كبيرة مثل جامعة القاهرة ولم أترك فيها مكانًا إلا وبحثت عنها فيه وفي الأخير تكون هي بقسم آخر في كليتي، ولكني دائمًا لا ألتفت إلى الباب الذي يحجب النور وأذهب إلى ثقب المفتاح أرى من خلاله كل ما أريد، فوجود حبيبة في كليتي قد سهل عليّ نصف المهمة تقريبًا، فبكوني محبوبًا من الجامعة كلها بحمد الله لم تخلو تلك المحبة أيضًا من قلوب الموظفين بشئون الطلبة بكليتنا. ذهبت إليهم متظاهرًا أني أبحث عن طالبة تدرس بقسم «العمارة» قد فازت بجائزة في مسابقة أقامها اتحاد الطلبة بالجامعة، وبما أنها قد تغيبت عن الحضور لشهرين فقد وجب عليّ كرئيس اتحاد الطلبة

أن أبحث عن عنوانها بنفسي لنرسل لها جائزتها حتى البيت، كذبت وأنا أعلم ذلك، ربما تلك هي الخطيئة الأولى التي كانت لتنبهني أني في الطريق الصحيح للسقوط في الهاوية ولكني لم أنتبه لذلك، أو بوضوح شديد تجاهلت أن أنتبه لكل شيء قد يعركلني عما أنوي.

وجدت عشرات الطالبات التي تحمل اسم «حبيبة» في قسم العمارة في جميع السنوات الدراسية بالكلية. لم يكن الأمر سهلًا، ولم تكن إرادتي ضعيفة لأتراجع عما أريد، خطر بذهني أفكار كثيرة ولكني اهتديت إلى أصعبها، أن أذهب لأستاذ مادة « الرياضيات» أستاذي المفضل والذي طالما اعتبرته كوالدي وأعلم أني أمتلك حظًا طيبًا من محبته أيضًا، واخترته بعينه؛ لأنه هو الأستاذ الوحيد الذي يدرس لجميع الأقسام وقد توقع حدسي أنه درس لها ويعرفها ولم يكن ليخيب ظني فيما أتوقع ابدًا.

ذهبت إلى مكتبه وقد أذن لي بالدخول مستقبلًا إياي بترحيب شديد:

- معاذ.. تفضل.

سلمت عليه ورأسي تدور بأفكار كثيرة تؤدي بي في النهاية إلى طريق أعرف منه ما أريد دون أن يرمقني بنظرة شكٍ واحدة:

- أستاذي العزيز.. أعلم أني مقصر في حقك كثيرًا، ولكني أعلم أنك ستلتمس لي عذرًا ليس لي الحق فيه.

ابتسم قائلًا:

- لا تقل ذلك فأنتم جميعًا أولادي.. بلغ سلامي لشيخنا الحبيب.

هززت رأسي موافقًا وقلت:

- سأبلغه أن شاء الله.. وأعتذر إليك يا أستاذي لي عندك طلب وكلي أمل أنك ستساعدني.

انتبه وأماء برأسه أي تفضل، فأردفت:

- كنا قد نظمنا مسابقة للطلبة على مستوى الجامعة كلها ونجح فيها بعض الطلاب من كليتنا وأعطيناهم جائزة عدا واحدة لم تحضر منذ شهرين ولا نعلم كيف نصل إليها.

ساوره الشك بعض الشيء وسألني:

- من هي؟

فقلت محاولًا -بجميع قواي- أن أتماسك مظهرًا ابتسامتي الهادئة:

- طالبة اسمها حبيبة بقسم العمارة.. لا أعلم في أي صف تدرس ولكني أعرف شكلها.

انتبه أكثر وقال:

- صفها لي.

وقبل أن ينطق لساني بالإجابة على سؤاله انتبهت جيدًا لأني أن تركت العنان للساني بالحديث سيعم الخراب بكل شيء، فإذا تحدث خرس الجميع بما فيهم عقلي المسكين الذي لم تعد له القدرة على إيقافي كالمعتاد.

تنفست الصعداء وأنا أقول بعدم اكتراث واضح:

- لا أتذكر جيدًا ولكنها بيضاء وطويلة ونحيفة بعض الشيء.

بادر الاستاذ مسرعًا:

- تقول إنها تغيبت منذ شهرين؟

- نعم.

أسند ظهره إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه وقال بثقة شديدة:

- إنها هي.

فرحت فرحًا شديدًا ولاحظ هو ذلك، فإن تمالكت نفسي سيساوره الشك لذا أكملت فرحي قائلًا:

- الحمد لله أننا وجدناها .. فإن الأمانة لابد وأن تذهب إلى صاحبها من يدري من سيعيش أبدًا؟.

ابتسمَ معلنًا انتهاء مغامرتي تلك بالفوز الساحق وتناول ورقة وكتب بداخلها شيئًا وأعطاها لي وقبل أن أرى ما فيها شكرته كثيرًا وخرجت من مكتبه وأنا أقرأ ما في الورقة رغم أن ما فيها تكفي ثانيتان فقط لقراءته .. «حبيبة مُنذر».

ذهبت إلى مكتب شئون الطلبة مرةً أخرى وأنا أحمل معي الورقة التي بداخلها الاسم ليعيدوها إلى مزودةً بالعنوان وهنا بدأت في مهمة أخرى، بدأت في البحث عن طريقة أذهب بها إلى بيتها غامضًا عيني عن سُباب عقلي الذي كره تكبيله في سجن لم يألفه من قبل.

ودون تردد ذهبت إلى العنوان الموجود بالورقة، بداخلي شيء يدفعني نحو ما نويت فعله، وبداخلي أشياء كثيرة تحاول أن تثنيني عن تلك النية التي لم أكن أدرى أن عواقبها ستكون وخيمةً لهذا الحد أبدًا..

*****

« عابدين »

تلك هي المنطقة التي كان يشير إليها العنوان الموجود بالورقة، ومن حسن الحظ أني أحب تلك المنطقة كثيرًا نظرًا لمكانها القريب من «ميدان التحرير»، هنا اختبأنا من هجوم الدبابير علينا، وهنا وجدنا البيوت المفتوحة لنا بإيمان راسخ بما نفعل، هنا حيث رائحة وسط البلد القديمة تفوح من المباني والمقاهي خصوصًا في ذلك الوقت.. ديسمبر.

الوقت مناسب جدًا ليصعد « ياني» على حافة أذني ويشير لجنوده المخلصين أن يمسكوا أسلحتهم الحانية لتنطلق الثورة إذن، ثورة سماها « ياني « بالعاصفة، وهي كالعاصفة حقًا، كان المشهد السيريالي يخيم تمامًا على الأجواء؛ شاب يقف في منتصف شارع « محمد محمود « أطوف بعيني بين الألواح والأرقام المعلقة على أبواب العمارات حتى اهتديت إلى العنوان الموجود بالورقة لأجد على باب تلك العمارة حارسها، سألته عن الطابق الذي يسكن فيه الأستاذ « منذر « فدلني على الطابق الخامس، صعدت ولم تكن بداخلي أي خطط أو تدابير لما سأفعل..

و..

لم تكن زيارتي لحقل الدبابير تلك المرة كالمرات السابقة، فعندما أخبرني « إبراهيم» بأن رحمة قد وضعت معاذًا وراودني شعورٌ وقتها بأن النور الذي اقتحم ظُلمتي وقتها لن يدوم طويلًا..

الطريق كان طويلًا هذه المرة، أشعر ببطء كل شيء حولي، الكل يدور في سبات تام؛ إلا رأسي، تدور بأفكار حالت بيني وبين الفرح بمعاذ، صديقي ورفيقي الذي قتلني انتظاره، وعندما حان وقت لقائنا حالت الدبابير بيننا، ألا لعنة الله على من اتخذوا الوطن سترة لخيانتهم..

لم يكن المكان الذي أوصلاني إليه منكر ونكير هو المكان الذي طالما أتيته! ثمة شيء ما يحدث لا أفقه تفسيره.

أدخلاني غرفةً أشبه بغرفة الفئران التي كان يُخيفنا بها جدي، لا أعلم ماذا يحدث ولكني أوقن تمامًا أن الطاولة قد مالت بأكملها في الاتجاه الذي يلتف حوله جميع أعدائي، تركوني ورحلوا، الظلام هنا يخبرني بأن النهار قد ضل طريقه وفرض الليل سلطته كاملةً.

يومٌ، يومان، شهرٌ، وأنا هنا في تلك الغرفة أبحث عن ثقب خلف الباب أرى به معاذ، أشعر بأنفاسه كأنه جالس بجوار جند إبليس يدعوهم إلى رؤية الوطن من أعين محبيه لا من أعين إبليس الأكبر.

تدهورت حالتي الصحية، لم يكترثوا لكوني مريضًا ترافقني أدويتي حيثما أذهب، وبسبب طول المدة التي لم أتناول فيها الدواء؛ ساءت حالتي الصحية مما دعاهم أن يقلوني إلى المشفى..

ربما أدين بحياتي كلها لذلك الطبيب الذي ربما لولاه لكان الظلام قد باء بالفوز في كل المعارك التي خضناها سويًا ولم يترك لي حتى فرصة كي أنوي الحرب. كان شابًا أعتقد أنه لم يجاوز عقده الثالث بعد، دخل عليّ مبتسمًا وأنا أكاد أراه كمن يرى من خلف زجاجٍ أهلكه المطر في ليلة شتوية. قال لي وهو يتفحص عيني مبتسمًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا شيخ ياسين.

وجهه البشوش قد ساهم كثيرًا في إنجاح محاولتي البائسة في مبادلته الابتسام، كنت أعلم جيدًا أين سيذهب بي الحال وإلى أين سينتهي بي الطريق في تلك المشفى، وذلك ما قد دعاني لأطلب منه طلبًا أعتقد أني كنت لأندم كثيرًا إذا ما طلبته:

- يا طبيب .. أعلم أن أيام بصري معدودة.. لو كان ذلك صحيحًا أرجوك أخبرني.. فإن لي ولدًا لم أره منذ وُلد.. جزاك الله خيرًا يا بني على رجلٍ مثلي قد توقفت آمال حياته عليك.

لم تتبدل ابتسامته بل زادت ليدنو مني ويربت على يدي ثم أماء برأسه مخبرًا إياي بأنه سينفذ ما رجوت منه..

لم يكن الأمر سهلًا خلال تلك الحراسة المشددة على غرفتي، شعرت حينها كأني قد تركت وطنًا يقع من الدور السابع والستين لتتلقفه يد الصهاينة، أو كأنني استرددت ما وقع من الأول هذا لأذهب إليهم منكسًا رأسي مسالمًا، أو يجوز أنهم قد أعتبروني كمن رأى ما فعله هذان الاثنان فترك الوطن معروضًا في «فاترينةٍ» جاذبة للأنظار كي لا يتعب الباغيين في شرائه من النظر إلى أعلى.

لا تزيغ عيني عن الباب منذ أن وعدني ذلك الشاب أن ينفذ لي ما طلبته منه فور ما تسنح الفرصة له بذلك. وفى يومٍ ما، أظنه كان كمثلث برمودة الذي جعل لي حياتين لا حياةً واحدة، كان كالبرزخ الذي فصل بين حربي الطويل مع الظلام ومجابهتي لظلمه وردعه عن رغبته في استيطاني، وبين فوزه.

كنت بالغرفةِ وحدي, لا لم أكن وحدي, كان معي أعز أصدقائي وأقربهم, أحاوره ويحاورني.. إنه الألم.

الألم, حينما ترى الأشياء بشكلٍ مختلف، حينما تدرك أن للكون حركة بطيئة لا يشعر بها الآخرون، فلتتأكد حينها أن الألم قد صنع منك آلةً تصدر صراخًا وعويلًا لم تعتده من قبل، وبرغم كونك صلبًا يهابك الوجع, فلقد صنع منك الألم آلة، وبكونك مختلف كالعادة، فأنت تصرخ في صمتٍ تام..

أشعر بالألم يزداد كلما أتنفس، كلما يتأكد أني أقاوم يزيد من قسوته، ولكوني محاربٌ قد مضى طيلة حياتة يبحث عن حربٍ تليق به, أصبحت أتقن جميع فنون القتال، أدرس خصمي قبل مواجهتنا المباشرة، أنتظر اللحظة التي أقول فيها إن الحرب خُدعة وها قد جاء دوري في الفوز. .

ها أنا الآن، أقف أمامك مبارزًا، لك أسلحتي فحدق النظر بها جيدًا، فربما تكون هي آخر ما ترى ..

أحمل في يدي شقوقًا قد هرمت من عظم ما عانيتُ من ألمٍ ووجعٍ, أعتقد أنك تتلمذت على أيديهم، وأحمل على وجهي تلك الابتسامة التي تمنع عنك أي لذة انتصارٍ من حربٍ أثق أنها لي في النهاية..

صديقي الألم، لك تحياتي المبتسمة، أسعد بمجاورتك لي, لا تظنني لا أريدك!, حاشا لله أن أمنع أمرًا قد قضاه، فلتهنأ في فترة بقائك معي فإنك لن تصادف مثلي مجددًا، أستقبلك بالورد رغم دموعي، فلتهنأ يا صديقي فإنك لن تبقى معي طويلًا ..

أخبرني الطبيب يومها في الصباح أن الطرق كلها تؤول إلى عملية جراحية خطيرة في عيني، ليس هناك أي بدائل متاحة، ومن الغريب أيضًا أنه أخبرني أن نسبة نجاح تلك العملية لا تسمح لقلبي أن يتعلق برؤيةٍ بعدها. لذلك، لم يكن أمامنا سوى المخاطرة، على الطبيب أن يغامر بوظيفته، وعليّ أن أدعو بأن يجعل الله بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا ويُغشيهم فلا يبصرون، وحدث.

بدت لي رحمة حينها كالعذراء مريم حينما أتت لقومها تحمل ولدها على يديها، في قلبها نور الله يطمئن الخوف الذي قد أكل كل ما بداخلها في فترة غيابي عنهما، كان غطاء معاذ أبيض رأيته نورًا قد عمّ بالغرفة فطرد الحزن الذي مكث معي أنيسًا منذ أن أحضروني هنا، أقبلت عليّ مبتسمةً كأنها قد أنجبت معاذ خارج الغرفة وأتت به إلى لنفرح سويًا فإننا لا نعرف كيف يكون الفرح إذا ما كان كل واحدٍ بمفرده، وضعت شفتيها على رأسي فهدأ معهما كل شيء، الحرب ومناجاة الوطن، السجن والظلام، هدأ كل شيء وكأنني تناولت حبات القرنفل فأتخذت مسارها عبر دمي إلى مواطن الجروح فسكنتها وسكَّنتها، لقد بت الآن جاهزًا للمحاربة مجددًا ومعي سلاحي الأول والأخير.. هي.

جلست بجواري وأمالت إلى بمعاذٍ فرأيته كشمس في نهار أغسطس، واضحًا تمامًا كأنما أراد الله أن أقول ما ينبغي عليّ قوله الآن:

- لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا.. الحمد لله.

أخذت أحفظ تفاصيل وجه معاذ كأني لن أراه ثانيةً، من يعلم الغيب إلا من يملك بيديه أمر بصري كله، ظللت هكذا كثيرًا حتى قاطعتني رحمة مازحة:

- من يراك الآن يقول بأنك اشتقت لمعاذٍ فقط! أتريد أن أمشي وأترككم سويًا ؟.

ضحكتُ كأنها قد أخبرتني ذلك ونحن ببيتنا نتسامر ليلًا، فلم يسعني حينها المزاح وتحدثت بجدية:

- قبل أن تأتوا الآن كان الجميع يتعجب من صبري وصمودي أمام كل هذا.. لا يعلمون يا رحمة أنكِ قد بنيتي جدارًا بداخلي بيني وبين الضعف والوهن.. وحدكِ فقط من تمتطين حصانًا قادرًا على أن يحملني على ظهره لنمر معًا إلى هناك فأفرغ ما أحمله من دموع على كتفيكِ ثم تعودين إليّ هنا مرة أخرى.. حيث القوة والصمود .. حيث أنني أشتاق إليكِ فور ما تعطيني ظهركِ وترحلين.

ردت بتلقائية شديدة:

- ما جاز لظهري أن يعلمكَ بتركِي إياك.. فأنا لا يحق لي أن أتركك أينما ذهبت.. أنتَ والدي وولدي وكل شيء يا ياسين.

لم يتسنى لي الرد عليها، فإذ بالطبيب يُقبل علينا فزعًا كأن قطاره أيضًا سينطلق منذ ساعتين، أخبرنا بضرورة رحيلهما الآن، تماسكتُ كأنه لم يخبرني أن علي أن أمسك السيف بذراعٍ قد أهلكتها الطعنات، فابتسمت وأشرت لهما بالرحيل فأمسكت هي بيديّ كأنها ترى الطعنات واضحةً بعينيها التي ترى ما لا يراه الآخرون بي حتى أنا وقالت:

- ستعود إلينا قريبًا يا عزيزي.. أخبرني ربي بذلك.

خرجا وتتبعتهما بعيني التي قد عادت إلى حالها البائس التي كانت عليه قبل أن يأتيا، لم يكن هناك أي عبارات شكرٍ تكفي لأقولها إلى ذلك الطبيب، فلقد سمح لي برؤية أسبابي في الحياة قبل أن أدخل في صراعي معها في الغد الباكر، وإن كنت سأدخل العملية بصمود شيخٍ أهلكته لحيته فأنا الآن سأدخلها بصمود محاربةٍ تفطن الطريق جيدًا إلى الفوز، ومن حسن الحظ أنها قد أتت معها للمرة الأولى بولدها الذي يبدو أنه ورث فنون الحرب من أمهِ وجاهزٌ الآن لقيادة الجيوش معها.

أتى النوم بطيئًا كأنه يعلم أني أنتظره، الغد مخيف جدًا ولكني لا أعرف الطريق إلى العودة، وإذا عرفت الطريق فلن يتغير شيء، ما الماضي إلا أنه كان حاضرًا ومستقبلًا في يوم من الأيام، أصبحت أرى نهاية كل ما مهدته الحياة لي منذ ولدت، أرى ذلك الرجل يقف في نهاية الطريق فاتحًا ذراعيه لي وأراني أسير نحوه في هدوءٍ تام حتى نمت.

أتى الغد يؤكد صحة ما رأته بصيرتي القوية، أسمع كل شيء بوضوح شديد، أسمع صوت الطبيب في آخر الغرفة يرجو ويقول أتركوه فلن يسبب لكم ضررًا بعد الآن فوافقوا.

لطالما أحببت اللون الأسود منذ أن بدأت في تمييز الألوان عن بعضها، لطالما رأيته يتربع على عرشهم جميعًا، هادئًا بسيطًا كأنه البحر في صفوه، كأنه السماء في احتضانها لنجومها، كأنه الليل، هو الليل حقًا، ولم أكن أعلم أن حبي للأسود سيجعله يحبني أيضًا فيأتي بنظارةٍ من أولاده لترافق عصاي طيلة حياتي المتبقية، لم أكن أُدرك ولا لحظة واحدة الشبه الواضح بين الأسود والظلام والحزن، كنت أميزه عنهما وأحبه ولكني اكتشفت الآن أنهم أبناؤه الكبار، لا خزي على محاربٍ حارب بكل ما أوتي من قوة وخسر في النهاية، حاربت المرض في معاركٍ كثيرة، هزمني تارةً وهزمته تارات، نال مني ونلت منه، علمني وعلمته، ولكن الجسد إذا وهن بفعل السنين فلا عيب على الاستسلام ولكني لم أتطرق له يومًا، أنهيت حربي وأنا واقف في الميدان لا شيء معي سوى قدميَّ الاثنين اللتين تُبقياني واقفًا إلى الآن، رحمة ومعاذ، ولكن يحتم عليّ الرجوع الآن فمن يعلم! يجوز أن أدخل حربًا أخرى مع شيء آخر فيجب أن أكون مستعد من الآن، ولكن قبل أن أغادر الميدان عليّ أن أعلن فوزه، لقد فاز الظلام في النهاية..

هو..

تطرق الخوف إلى قلبي ولكن قدمي واصلت الصعود، دنوت من الطابق الخامس على الرغم من أن عقلي قد تركني بالأسفل ولم يصعد، تركت الزمام لقلبي طمعًا في نيل الحرية، ظننت حينها أن السجن الذي قد وضعني عقلي به قد أوشك أن يتحول إلى بستان زهور وورد، وقفت بمحاذاة الباب ووضعت يدي على الجرس وضغطت ولم يكن برأسي أي شيء لأقوله عندما يفتح الباب..

وبرغم أن كل الاحتمالات التي قد بنيتها بمخيلتي لم يصيب أحدها الصواب! لم أكن أتخيل أبدًا أن فاتحة الباب ستكون حبيبة، كانت كالبدر في تمامه وكنتُ كمهاجرٍ يسافر في منتصف الشهر دائمًا فلم يعرف للقمر شكلًا سوى الهلال، دقيقة صمت تخللتنا وهي تنظر إليَّ في دهشة وبعض ملامح الغضب الذي ذكرني بكلام صديقتها، وقف الزمان عندي حقًا فلم أكن أشعر بشيء ولا أهتم بما سيحدث أيضًا، تيقنت حينها أني أحبها، فأنا لم أكن أعلم عن الحب شيئًا ولكنه لا يحتاج لتعليم أو دراسة، فهو هكذا يؤمن باللامنطقية وكل ما نفره العقل واستأنسه القلب، فعندما يتطرق الحب إلى قلبك ستشعر بأن الزمن والوقت ليس لهما أي أهمية، فقد يصبحان ناتجين لعملية حسابية أحد طرفيها صفر، النتيجة واحدة إذن فلا داعي للمكابرة، عليك بالاعتراف فقد خاب من كتم حبًا في صدره ولم يبديه..

قاطعتْ شرودي المبهم بحدة:

- ماذا أتى بك إلى هنا؟! أجننت!

رددت بحدة مماثلة:

- وماذا قد عساني أن أفعل؟! لم تأتي الجامعة منذ شهرين؟ وقد بحثت عنكِ في كل مكان ولم أجدك!

تضاعفت حدتها:

- ولماذا كل هذا من الأصل؟ لماذا تبحث عني؟

راق لي الهدوء حينها فقلت:

- ستعلمين كل شيء في الوقت المناسب.

هدأت هي الأخرى وبدا صوتها يميل إلى الرجاء وقالت:

- لا أريد أن أعلم أي شيء.. أرجوك لا تفعل.. أرجوك.

لم أفهم شيئًا من حديثها، ومما تخاف، وماذا ترجو، فصمتُ محاولًا إدراك ما تريد أن توصلني إياه فأردفتْ وهي تلتفت إلى داخل الشقة:

- إذا خرج أبي فلن يكون الأمر جيدًا لي ولك.. ارحل أرجوك.

دفعني رجاؤها وخوفها لموافقتي ولكني خفت أيضًا أن لا أراها ثانية فاندفعت قائلًا:

- سأرحل.. ولكن عديني أن تأتي غدًا للجامعة.

أماءت برأسها موافقةً وأغلقتْ الباب، كنت في الطابق الخامس وأسمع سباب عقلي من الدور الأرضي، لم أكن أسمعه جيدًا ولكني أعتقد أني قد سمعت اسم «ياسين» أكثر من مرة! لا أعلم إلى الآن لماذا لم أخبر والدي وصديقي الأوحد عن حبيبة ولكن ثمة شعور بداخلي يمنعني من ذلك ولا أعلم له سبب، لذا قررت أن أتحدث معه قريبًا ولكني أجلت ذلك حينما تأتي هي للجامعة ويتضح لي كل شيء، فأنا لا أفهم ما يحدث لذا وجب عليّ الانتظار لأفهم كل شيء بوضوح تام.

التقطت عقلي من الشارع لنتسكع قليلًا في مكاننا المفضل.. وسط القاهرة. هنا حيث أنتمي، أنتمي للشوارع والأرصفة، للمقاهي والسقيع، للراديو وصوت أم كلثوم، لكل شيء يمتد آخره لي، فهنا أكتب جميع مقالاتي وقصائدي، هنا يجد كل مبدعٍ الطريق الذي يرنو إليه خياله، وإذا كانت مصر كلها صندوقًا فهذا هو حرفيًا «خارج الصندوق»..

غادرت حبيبة شقتها وأتت إلى خيالي تسكن فيه، كانت تمشي معي وتمسك بيديّ، شعرت حينها أن «محمود درويش» قد تدلى من بلكونته المطلة على ميدان «طلعت حرب»، يحتسي فنجانه المعتاد من البن البرازيلي الأصيل، يرتدي قبعته اليونانية القديمة ثم وقف يحادث جماهيره العريضة الذين يتمثلون فيّ، وفي نفس اللحظة التي صدرت من غرفة «زياد سحاب» ألحان عودٍ جعلتني أتسمر في مكاني، صدح درويش:

انتظرها، بذوقِ الأمير الرفيع البديع، انتظرها،بسبعِ وسائد محشُوَّةٍ بالسحابِ الخفيفِ، انتظرها، بنار البخور النسائيِّ ملءَ المكانِ، انتظرها، ولا تتعجَل، فإن أقبلَتْ بعد موعدها، فانتظرها، وإن أقبلتْ قبل موعدها، فانتظرها..

أيقنت رسالته وآمنت بها، فهمت فحوى رسالته المختبئة في تلك اللوحة السريالية العظيمة، فغادرت وعقلي قد أخذ مُسكنًا ليسكت عني بعض الوقت فإنه يعشق درويش هو الآخر، ولكننا لم نعِ وقتها أن لرسالة درويش بقية لم يقولها، يجوز أني لو كنت سمعتها لتغير كل شيء ولكنه القدر، القدر الذي أخترناه بإرادتنا دون أن نعلم..

*****

في اليوم التالي، ظللت جالسًا طيلة اليوم أمام باب الكلية متجاهلًا كل شيء، محاضراتي واجتماع اتحاد الطلبة ومهاتفتهم لي، تجاهلت كل شيء، أنتظرها فقط..

حتى أتت, وأتى معها الربيع بأزهاره ووردة, كانت كالفراشة, لم تترك حقلًا إلا واستنشقت عبيره, كنت محظوظًا حقًا وأنا أُرى كيف يُحول الرحيق إلى عسل, لا بل كانت خمرًا, شربتها فسكَّرتني وسكَّرتني, هزمتني دون أن تُلقي بالًا بذلك!, ولأول مرة يكون المهزوم سعيدًا, لم أكن سعيدًا فحسب, بل كنت السعيد الوحيد فى الدنيا..

اقتربت مني وهي تبتسم, لم تقل شيئًا فبادرت أنا:

- جيدٌ أنكِ أتيتِ.. وإلا كنتُ سآتي أنا إلى بيتكم ثانيةً.

تحولت بسمتها إلى ضحكة فزاد جمالها جمالًا!, وقالت وهي تزيحُ شعرها الذي تدلى سِرقةً إلى عينيها:

- المرةُ الثانية سيفتح لكَ أبي.. وبعدها أعتقد أنك لن ترى مجددًا بعينك تلك.

ضحكتُ, ومن المرات القليلة التى أضحك فيها حتى بدت نواجزي ويعلو صوتي هكذا.

مِن يومها, وقد أختلف كل شيء, وبرغم اختلافنا فى الطِباع والتفكير, فلقد كنتُ أسعى دائمًا إلى مشاركتها فيما تحب فعله, ذهبت إلى عالمها الذي أراه سطحيًا, لا يشبهني ولا أُشبهه, ولكني أحببتها, أحببتها حقًا, رغم اني لم أرَ منها ذلك, فكانت تبتعد كلما أقتربت, لا تحب عالمي ولا تفكر حتى مجرد التفكير فى الذهاب, لا تقرأ, تشعرُ قليلًا, لا!لا تشعرُ أصلًا..

أسمعتها لـ«جاهدة» ولم تُحبها, أعطيتها كتبًا لـ«رضوى عاشور» ولم تقرأها, تركت لها يمّي فلم تشرب ومت عطشانًا, فعلتُ كل ما بوسعي لتشعر, وشعرتْ قليلًا, لا!لم تشعر أصلًا..

فاض الكيل بي ولم يعد لدي ما أفعله, هناك شيء لا أفهمه, وليس هناك أسوأ من أن يجهل الرجل إن كانت تحبه امرأته أم لا فيسألها, فلا تجيب..

لـذا؛ لجـأتُ لصديقتهـا تلـك, ربـما لتجيب عـن تلـك الأسـئلة التى لا أعلـم لهـا إجابة,

وربما لترشدني إلى طريقٍ أجد حبيبة فيه فى النهاية, ولكن لم يحدث ذلك, لم أفهم منها شيئًا ولم تعطني إجابةً صريحة, لمحتُ تحذيراتها السابقة بشكلٍ أقوى هذه المرة, ولكني رأيت أيضًا حثها القوى لي على الاستمرار في محاولة الوصول إليها, لم أفهم شيئًا منها, في ذلك اليوم؛ هاتفتُ حبيبة, صرحت لها بحبي وبكل شيء, كانت علاقتنا تحت مسمى الصداقةُ إلى أن نسميها باسم آخر, ولكني كنت أعلم بأن الحب واضحًا في عيني ولا تخطئ الأنثى فى قراءة ذلك أبدًا, ولكنها تعمدتْ أن تتظاهر بصدمتها ولم تُجب, فسألتها عن شعورها أيضًا ولم تُجب, كم هو بائس أن تنتظر الأبكم أن يتحدث..

*****

في غـدِ ذلـك اليـوم, جلسـتُ في نفـس المـكان الـذي أنتظرتهـا فيـه أولَ مـرة, ولكنهـا لم تكـن كأول مـرةٍ أبـدًا..

لم تـأتي بمفردهـا هـذه المـرة, بـل أتـت بصحبـة صديقتهـا تلـك, رأيتهـما تأتيـانِ مـن بعيـد، هـي وصديقتهـا، تتحـاوران وهمـا تنظـران إليَّ وملامـح حبيبـة لاتنبـؤ بخـير عكـس صديقتهـا التـي كانـت تبتسـم فـور مـا تلاقـت أعيننـا، دنتـا منـي وسـلمت عـليّ صديقتهـا ثـم ذهبـت وهـي تنظـر إلى حبيبـة كأنهـا تريـد أن تؤكـد عـلى مـا اتفقتـا عليـه، أقتربـت منـي حبيبـة وهـي تنظـر في جميـع الزوايـا عـدا زاويتـي!،

قابلتُ أنماط النساء جميعهن ولكن نمطها لم أألفه من قبل، ويبدو أن ذلك هو حبلها الذي رأيته ثعبانًا فسحر عيني وأصبحت لا أرى سواها، وتغيبت لباقتي المعهودة عني في ذلك اليوم فصرت أبكمَ، لم يكن هناك ما أقوله فعيني تفضحاني وعينها جريدةُ تروج الإشاعات جيدًا..

لم يلبث الصمت طويلًا حتى قالت وهي تشير إلى بنتين كانتا تنظران إلينا:

- هؤلاء البنات ينظرن إليك.. يبدو أنهن يعرفنك.

لم أنظر إليهن وأومئت لها أن تتجاهلهن لتردف هي:

- أريد أن أتحدث معك.

رددت بتلقائية:

- وأنا أريد أن أسمع.

مشينا سويًا متجهين إلى «كافيه الكلية» وكأننا تحولنا فجأةً إلى نجمين هوليوديين وتحولت أعين الجميع إلى كاميرات، لطالما كرهتُ الأضواء ولطالما بحثَتْ عني، ولكن اليوم لا أكترث بذلك، فأنا لا أرى غيرها مهما اشتد الزحام وكثرت الطرق،جلسنا وطال الصمت قليلًا هذه المرة ثم تحدثَتْ لتثور البراكين التي خملت لسنوات طويلة، أخبرتني بأشياءٍ لم أكن يومًا أرجو سماعها ولا بمحض الصدفة، بانت لي تحذيرات صديقتها الآن جليةً كالشمس في وضح النهار، أتذكر ما قالته كأنه «جرامافون» لا يمل من التكرار حتى الآن..

كانت هادئة جدًا وقالت:

- معـاذ.. لسـت أنـا تلك التـي تبحث عنهـا.. لا أفهم سر الـذي تفعله ولكنـى لا أريـد أن أعـرف.. هناك أشـياء لا ينبغي لنـا أن نعلمها..

صمتت برهة وأردفت:

- معاذ.. لست صالحة للحب مرة أخرى.

صُدمت مما قالت ولكنها أكملت باكيةً:

- أنـا أحبـه هـو.. لا أملك مكان لأحـد غـيره.. وبرغم خيانتـه وكذبه فأنـا أحبـه.. وبرغم أنـه تركني ما زلت أحبـه.. أحب آسر.. ليـس بيدي شيء سـوى أن أحبه.. والله ليـس بيدي شيء.

توقـف الزمـن للحظاتٍ مـرت دهرًا، بكاؤهـا ونظرات النـاس وحزني وحدهـم مـن واصلوا السـير، وجـدت نفسي بتلقائيـة بالغة أبتسـم وأمد يدي لهـا بمناديـل ورقيةٍ فأخذتهـا وهي لا تنظـر إليَّ وأردفت:

- ليـس لـك ذنـب في شيء.. وأعـرف أن البنـات كلهـن معجبات بك ولهـن حـق.. وأنا لـن أجـد لي صديقًـا مثلك مهـما بحثـت.. أتوافق؟

هنـا، أتذكـر أننـى اعتدلـت في جلسـتي ليعـود معـاذ إلى أدراجـه مـرة أخـرى، بدأت في اسـتيعاب كل شيء كأني قد مسـني الشـيطان منـذ أن رأيتها وهـا قـد اغتسـلت بـماء مقـروء عليـه، مـددت يـدي لعقـلي والتقطتـه ليعـود مكانـه وتعـود معـه الأمـور إلى نصابهـا، رن هاتفي في تلـك اللحظـة فتناولته مبتسـمًا ورددت:

- في الطريق إليكم.

كانت تنتظر إجابتي على طلبها، لا أعلم منطقية طلبها هذا ومن أين أتت بقدرتها على طلبه!، أي جزَّارة تلك التي تمسك السكين لضحيتها ظاهرة إياه مبتسمةً!، وبرغم كل ذلك وجدتني أزيد من بسمتي وأقول:

- موافق.

تركتها واتخذت طريقي تجاه مكان اجتماعهم، السير بجانبها يختلف تمامًا عن السير وحدي، الأضواء التي اشتهتني منذ دقائق نفرتني الآن، وكلما أدنو من الوصول اقترب من المكان الذي تركتها فيه، لا عيب عليّ أن أقول ذلك، فلقد تركْتني هناك أنتظر «سيناريو» آخر لما حدث، وبرغم قوتي وصمودي الآن فأنا ما زلت هناك طفلًا يمقت من تريد فطامه غصبًا، ما زلت هناك أنتظر قولها بأنني من انتظرته هي طوال حياتها وتحمد الله سرًا أنني جالس أمامها الآن، هناك خطأ ما قد حدث وعليّ وحدي تحمله، يبدو أن ذلك هو ميثاقُ عائلتنا المباركة، المعاقبة على ذنب لم تقترفه، ولكن ما أن وصلت إلى أعتاب مكان اجتماع اتحاد الطلبة الذي أرأسه، حتى بدأت في التقاط أنفاسي والبحث عن

هوية القائد المثقف اللبق الذي دهسته برجلها دون أن تدري..

- السلام عليكم يا رفاق.. أعتذر عن تأخيري أولًا.. وثانيًا اشتقت إليكم جميعًا.

تبدل ضجرهم وانزعاجهم مني إلى بسماتٍ لطيفة ليرد أحدهم:

- ونحن اشتقنا إليك يا قائد.. لدينا أعمالًا كثيرة مؤجلة وننتظر رأيك فيها.

وقالت أخرى:

- عدد المجلة الأسبوعية سيصدر غدًا يا قائد ولم تسلمني مقالتك بعد!.

رددت وأنا أخرج ورقةً من حقيبتي:

- هذا صحيح.. أعتذر لذلك ولكن المقال هذه المرة كان يحتاج لوقتٍ طويل.. سينال إعجابكم بإذن الله.

قالت إحداهن التي كانت تجلس حاملةً على فخذيها «حاسبًا آليًا»:

- عن ماذا يا معاذ.

لا يجرؤ أحد على مناداتي باسمي هنا ولكنها الوحيدة التي تفعل ذلك دون أن ينظر لها أحد حتى أنا، وقبل أن أرد عليها أردفت هي:

- أظنها حبيبتك.

اندهش الجميع منها ونظروا لها لتكمل ضاحكةً:

- لا تندهشوا.. فلو كانت فلسطين أنثى لتزوجها معاذ.. إنها حبيبته التي يكتب لها دون أن ينتظر منها رد.

ضحكوا هم الآخرون ولكني لم أضحك، أوقن تمامًا ما تعنيه في كلامها، ونظراتها تتفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي، ولكي تؤكد لي ذلك أكملت وهي تبتسم:

- نريد أن نسمعه بصوتك.. نحب ذلك.

أيدها الجميع في ذلك وأنا ما زلت أنظر لها في صمت تام، تدور بين أعيننا أحاديث كثيرة لا يسمعونها، رفعَت حاجبيها لتنبهني ففتحتُ الورقة وبدأت في القراءة:

«بالأمس روادني حلم تمنيت لو أنه حقيقة، فلقد أسرى بي إلى أرض المعاد، أرض الرب.

هنا، وعد الله إبراهيم وعاهده على أن تكون هذه الأرض لنسله، فهي أرض المعاد التي سيعودون تحت قيادة المشيَّح «المسيح المخلص»، أي أنها الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ، هكذا قال اليهود.

ولكني لم أرى منهم أحدًا!، فلقد طفت فلسطين كلها ولم أرهم، بحثت عنهم تحت التراب ولم أجدهم أيضًا، أين شعب الله المختار؟! لا أرى سوى شجر الزيتون والأطفال تحته يعصرون ويأكلون كمواطنين الجنة، تتبعت أسراب الطيور حتى وصلت إلى ساحة القدس، الجميع جالس ومتأهبُ لحدث عظيم، حتى ظهر أمامنا رجلان كبّر الأقصى تحيةً لهم..

بدأ أصغرهما سنًا بالحديث قائلًا:

مرَرنا على دارِ الحبيب فرَدَّنا.. عنِ الدارِ قانون الأعادي وسورُها، فَقُلْتُ لنفسي رُبما هِيَ نِعْمَةٌ.. فماذا تَرَى في القدسِ حينَ تَزُورُها؟

رد عليه أكبرهما سنًا وقال:

في القدس، أَعني داخلَ السُّور القديم.. أَسيرُ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ بلا ذكرى تُصوِّبُني، فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون تاريخَ المقدَّس.. يصعدون إلى السماء.

ثار الصغير قائلًا:

في القدسِ شرطيٌ من الأحباشِ يُغْلِقُ شَارِعًا في السوقِ، رشَّاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ.

ثار الكبير أيضًا وقال:

أَمشي كأنِّي واحدٌ غيْري.. وجُرْحي وَرْدَةٌ.. بيضاءُ إنجيليَّةٌ، ويدايَ مثل حمامتَيْنِ

على الصليب تُحلِّقان وتحملان الأرضَ.

صمت الصغير برهةً ليكمل الكبير:

لا أمشي.. أَطيرُ.. أَصيرُ غَيْري في التجلِّي. لا مكانَ و لا زمان فمن أَنا؟

أَنا لا أنا في حضرة المعراج.

قام الصغير وأمسك بيديه علم فلسطين وقال بأعلى صوته:

«في القدس تنتظمُ القبورُ، كأنهنَّ سطورُ تاريخِ المدينةِ والكتابُ ترابُها.. الكل مرُّوا من هُنا.. فالقدسُ تقبلُ من أتاها كافرًا أو مؤمنًا.. أُمرر بها وأقرأ شواهدَها بكلِّ لغاتِ أهلِ الأرضِ.. فيها الزنجُ والإفرنجُ والقِفْجَاقُ والصِّقْلابُ والبُشْنَاقُ والتاتارُ والأتراكُ، أهلُ الله والهلاك، والفقراءُ والملاك، والفجارُ والنساكُ.. فيها كلُّ من وطئَ الثَّرى.

ثار الجميع لثورته وثارت معهم دموعي لأجد ذلك الصغير يقترب مني ويقول وهو يشير إليّ:

لا تبكِ عينُكَ أيها المنسيُّ من متنِ الكتابْ.. لا تبكِ عينُكَ أيها العَرَبِيُّ واعلمْ أنَّهُ.. في القدسِ من في القدسِ لكنْ.. لا أَرَى في القدسِ إلا أَنْتْ.

لا يمكنني وصف شعوري وقتها، كنت طائرًا حقًا، شاهدت «محمود درويش» و«تميم البرغوثي» يقولان شعرًا في فلسطين أمامي! ولا أثر ليهودي ولا لامرأة تبكي، لا أثر سوى لنا، نحن الملاك الشرعيون للأرض، ندافع عنها حتى تدافع هي عنا، كان حلمًا رائعًا جدًا وكنت في غاية النشوة والسعادة حتى نسيت أني أحلم، ولكن بائع الخضروات الذي مر في الصباح الباكر تحت بيتي وأيقظني لم ينسَ ذلك، وصوت أبي وهو يسمع في التلفاز عن الحصار وزحف الاستيطان لم ينسَ ذلك أيضًا..

فلسطين.. ستعودي إلينا يا عزيزتي عما قريب.

صفق الجميع بينما أنا أخذتني دموعها التي سقطت رغمًا عنها، فهي تحب فلسطين كما أحبها، وددت أن أذهب لها وأتحدث معها في اللاشيء كعادتنا ولكنني خفت أن تدرك حزني على ما حدث منذ قليل، ولم يترك لي هاتفي فرصة الاختيار هو الأخر فلقد رن جرسه في هذا الوقت ليظهر اسم والدي فلملمت حقيبتي وأخبرتهم أني سآتي غدًا وأمسكت الهاتف ودار حديثنا كالتالي:

- السلام عليك يا شيخ ياسين

- وعليك السلام يا بني.. متى ستأتي؟

- لقد خرجت من الجامعة الآن وفي الطريق إلى البيت.. أتريدون مني شيئًا أحضره لكم؟

- لا يا بني.. تَعالَ بخير فحسب.

- حسنًا.. مع السلامة.

❊❊❊❊❊

قليوب

مسقط رأس والدي، ومسقط رأسي أيضًا جميع من أَحب، أنا وأُمته، كما يجب أن يقول عن والدتي في غيابها، أما في حضورها فهي رحمة، أُناديها رحمة في معظم الأوقات، ولكن أحيانًا ما يحتم الموقف أن أناديها بـ«أمي»، عندما تهزني بيديها برفقٍ لأستيقظ، فأجدني أبتسم دون وعيٍ وأقول:

«صباح الخير يا أمي»

وكذلك عندما يشبه عليّ بعض أفراد عائلتنا التي رأيتهم لمرةٍ أو مرتين في حياتي، يقولون «أأنت ابن رحمة؟» نظرًا للشبه الكبير بيننا، فأرد مؤكدًا لهم» نعم إنها أمي»، ولكن إذا تحدثت عنها فلن أكن منصفًا أبدًا، هي الموطن والسند وكل شيء، يتعجب البعض من حب أبي لأمي ولكني لا أتعجب من ذلك، فهي دائمًا ما تقنعنا بأنها تكفي، فهي الحبيبة والصديقة والأم والأخت والبنت وكل ما جاز لحواء أن تكون، هي رحمةُ وليس هناك رحمةٌ سواها..

أما عن ياسين فهو صديقي الأول والدائم، مستشاري الناصح الحكيم، منبع ثقافتي وقِبلةُ طريقي، هو الذي ما أن رآني أخطئ يقومني بطريقة لا أخطئ مثلها ثانيةً، فلقد تعلمت منه كيف يكون الأب صديق، والصديق أب، تعلمت منه أشياء كثيرة، أهمها هو أنه يجوز أنك قد تفعل أشياء عظيمة، ولكن لا أعظم من أن تكون إنسانًا حقًا، فوالدي هو الإنسان الأول الذي عرفت منه كيف تكون الإنسانية..

كان يجلس على الأريكة أمام التلفاز يسمع الأخبار كعادته، انتبه لصوت الباب وأنا أفتحه فذهبت إليه وقبلت يده وجلست بجواره ليقول:

- كيف الأمور معك يا بُني؟ هل كل شيء بخير؟

ربتُ على يده وأجبته:

- الحمد لله يا أبي كل شيء بخير.

سكتُ قليلًا وأردفت:

- أريد أن أخبرك بشيء.

انتبه لي وتحسس «الريموت» وأغلق التلفاز قائلًا:

- قل يا ولدي أنا أسمعك.

طفت بعيني جميع أرجاء البيت وقلت:

- أين أمي يا أبي لا أراها تستقبلني كالعادة؟!

فأجاب:

- نائمة.. ولكنها أخبرتني أن أوقظها عندما تأتي لتجهز لك الطعام.

- اتركها نائمة فلست جائعًا.

ظهرت ملامح القلق عليه ليسألني:

- ماذا بك يا بُني أخبرني.

تنهدتُ قليلًا ليدور بيننا الحديث كالتالي:

- لا أعلم.. ولا أدري أأنا على صوابٍ أم خطأ.. ولكن يبدو يا أبي أنني أحببت.

ابتسم ولم يعقب، فأردفت:

- هذه المرة الأولى يا أبي التي أترك فيها الزمام لقلبي ولا أسمع لعقلي.. كنت مقيدًا بقيودٍ من الفل والياسمين.. لم تكن لدي القدرة على السيطرة على كل ما أشعر به.. أيقلب كياني وتتغير مبادئى رأسًا على عقبٍ لأجل امرأةٍ يا أبي؟!.

صمتُ ليقول هو:

- وهل أخبرتها؟

أعلم أنه لن يرى ابتسامتي المنكسرة تلك التي ابتسمتها بعد سؤاله هذا ولكني موقن تمامًا أنه قد شعر بها، فأجبته قائلًا:

- أجل.. ولكن.. تعلم يا أبي!.. دائمًا ما كنت أنظر بسفاهةٍ لأصدقائي هؤلاء الذين يبكون بالليل وينحبون على فراق من يحبون.. كنت مخطئًا.. الأمر ليس بهذه السهولة يا أبي على الإطلاق.. أشعر بأن هناك سكينًا بصدري يقطع قلبي إربًا.. أشعر بحزنٍ لا آخر له يا أبي.

ضمني إليه كعادته، وبرغم أن احتضان الأب لابنه غير مألوف في عهدنا الشرقي، ولكنه عودني على ذلك منذ صغري، فكان صدره دائمًا هو ملاذي ومأواي الوحيد، أتحدث معه في كل شيء ولا أخجل منه أبدًا، فكنت قدميه التي يمشي بهما ويذهب إلى المسجد، وعينيه التي تدله على الطريق، ويديه التي تُبعد عنه العثرات والأحجار، كنت له دليلًا وكان لي نبيًا، كنت له طريقًا وكان لي النهاية..

- يا بُني.. الحب ليس حرامًا ولا ذنبًا.. ولكنه إن كان سببًا في الهلاك فيجب علينا اجتنابه.. منذ طفولتك وأنا أنتظر ذلك اليوم الذي تأتي فيه وتخبرني أنك تحب إحداهن.. ونحن أصدقاء كما تعودنا.. والصداقة تحتم عليّ أن أعلمك بأن هناك خطأ ويجب عليك تداركه.. ولا تبتأس من حالك يا صديقي فنحن رجال لا يفطر قلوبنا شيئًا مهما عظمت قوته.. أليس كذلك؟!.

ابتسمت له مدركًا ما يعنيه، قبلت يديه ثم أويت إلى الفراش، أمسكت بالهاتف لأرى رسائل نصية من الاتحاد يذكرونني بسفرنا المؤجل إلى أسوان، أرسلت لهم رسائل تفيدهم بتحديد ميعاد السفر في نهاية الأسبوع، خلدت للنوم بعد فترةٍ طويلة من التفكير والوجع الذي أجهل مصدره، نعم أنا قويٌ جدًا وكلام والدي له مفعول السحر في قراراتي، فلقد استوعبته جيدًا وفهمته وفهمه عقلي أيضًا ولكن قلبي يأبى إلا أن يستمع لصوته فقط، وبعد التفكير الطويل في كيف سأنساها وجدتني أنتظر الغد لأراها حتى بمحض الصداقة التي وضعت حبي بها تحت الإقامة الجبرية..

أتى الغد وما زالت بي عوالق من الأمس لم تذهب معه، ذهبتُ للجامعة وبرأسي هدفُ واحد، لابد أن أمحو الشهرين الماضيين من ذاكرتي، لقد اقتربت امتحانات نهاية العام الدراسي ولا بد لي أن أصب تركيزي كله تجاه الدراسة فلم يتبق إلا القليل..

وبعد أن انتهيت من المحاضرات جميعها ونويت الذهاب إلى المكان الذي نجتمع فيه، وجدت صديقة حبيبة تلك؛ تقف في نفس المكان الذي كنت انتظرهما فيه، يبدو أنها كانت تنتظر أحدًا، توقعت أنها تنتظر حبيبة ولكن خاب توقعي، فلقد كانت تنتظرني أنا..

مررت بجانبها فأوقفتني قائلةً:

- أريد أن أتحدث معك بشأن أمر مهم.

ليس بيني وبينها أمر قد يكون مهمًا سوى حبيبة، لذا أمسك عقلي بلجامي وأمرني بأن أخبرها بأني متعجلٌ ولدي موعدٌ مهم باتحاد الطلبة ولكنها أصرت قائلةً:

- لن آخذ من وقتك الكثير.. فهو أمرٌ مهم جدًا.

فكرت لثوانٍ، وجدت أنه ليس من اللياقة أن تترجاني بهذه الطريقة ولا أسمعها، ذهبت معها وجلسنا بمقربة من المكان الذي يجتمع فيه الاتحاد لكي لا أتأخر عليهم، ومن دون أن تفكر قالت هي فور ما جلسنا:

- حذرتك من قبل ولكنك لم تسمعني.. كنت أعلم أن ذلك سيحدث.

حافظتُ على هدوئي رغم ضيقي مما تقول وقلت:

- وبما أنك تعلمين أنها تحب أحدًا آخر لماذا لم تخبريني؟!!.

قالت:

- هي تحبه ولكنه لا يحبها.. فعلتُ لها كل ما ينسيها إياه ولم أفلح.. هي صديقتي وأختي وكل شيء بالنسبة لي.. كنت قد يئست من أن تنساه حتى وجدتك تفتح لي بابًا آخر من النور فواربته ولم أغلقه.. وأعطاني حماسك ورفضك لتحذيراتي أملًا قويًا في نجاحك .. ولكن..

صمتت قليلًا فقلت أنا:

- أكملي.. لا انتظري سأكمل أنا!.. فشلت.. أتريدين قول ذلك؟

هزت رأسها نافيةً:

- لا.. لم تفشل.. لم تكن لك فرصة المحاولة من الأصل.. هي لا تحبه.. هي مريضةٌ به.. في الشهرين الماضيين الذين لم تأتي فيهما قضت أغلبهما في المشفى.. تسوء حالتها الصحية والنفسية ولن تتحسن إلا به وهو يعلم ذلك ويتمتع بذلها.. لا أعلم كيف أساعدها وجئت إليك لعلك تساعدني.. فلقد فعلت كل ما بوسعي من دون فائدة.

لم أتمالك نفسي حينها وثرت قائلًا:

- وما ذنبي أنا!!.. ولماذا أصلح خطًا لم أرتكبه.. ولمَ أساعدها وهي لا تريد أن تساعد نفسها!.. هي حرةٌ تفعل ما تريد.. وكل ما بوسعي أن أفعله لأجلها.. أن أنساها.

هزت رأسها نافيةً بكل ثقة وقالت:

- لن تنساها..

زادت ثورتي:

- سأنساها.. وإن كنت قد أحببتها فور ما رأيتها فأنا قادر على كرهها فور ما أقرر.

- لن تنساها..

هدأتُ لهدوئها وثقتها، تجزم بأني لن أنسى ولست قادرًا على تكذيبها، لم يكن أمامي سوى أن أقول لها كل ما بداخلي بوضوح تام:

- سأحاول.. وإن لم أنسَ سأكتفي بحبها وحدي.. لن أنتظر منها أن تحبني يكفي أنا.

اندهشتْ قائلةً:

- أتعي ما تقول؟!.

ابتسمتُ وأنا أقوم مستعدًا للمغادرة، وقلت بكل ثقةٍ وهدوء:

- نعم.. سأحبها وأنا بمنتهى القوة.. حبٌ لن يشاركني فيه أحد.. حتى هي.

تركتها وغادرت، غادرتُ وأنا أجيب على سؤالها بصدق تام بصوت لا تسمعه، فلقد صدقت هي وكذبتُ أنا، فلم أكن أعي فعلًا ما أقول..

اجتماع الاتحاد هذه المرة كان مختلفًا، ففور ما دخلت عليهم وجدتهم يصفقون ويصفرون، لم أفهم شيئًا حتى وجدت أحدهم يقول:

- فاقت ردود أفعال مقالك ما توقعنا.. سلمت يداك يا قائد.

شكرتهم جميعًا طارحًا موضوعًا آخر في سرعة، لا أنكر أني اكره الاضواء واكره ايضًا مثل تلك اللحظات، لا أحب المدح وخاصة على ما أكتبه، لذا؛ رأيتها تبتسم من نفس مكانها، فهي تفهم ذلك، كانت تجلس في نفس المكان التي كانت عليه بالأمس ناظرةً إلى «حاسبها الآلي» مشغولة في أمر ما عليه، فقلت وأنا أقف في منتصفهم جميعًا:

- شكرًا لكم جميعًا.. هذا ليس بمجهودي وحدي ولكنكم شركاء في هذا.. ولكن دعونا ننظر إلى شيء أهم الآن.. سنسافر أسوان في نهاية الأسبوع.. فلقد تأخر سفرنا هذا العام والناس تنتظرنا نفعل ما نفعله كل عام.

قال أحدهم:

- لقد جهزنا كل شيء وسنسافر أن شاء الله فجر الجمعة.. وجميعنا جاهزون أيضًا.

وافقوه جميعهم وأومأوا برءوسهم عداها هي لترفع رأسها قائلةً:

- لقد اعتذرت عن السفر يا معاذ.. صحة والدي ليست مطمئنة لأتركه وحده وأذهب.

هززت رأسي متقبلًا عذرها، كنتُ متماسكًا إلى أقصى درجة وكأنني لم أُقتل منذ لحظات، اتفقنا جميعًا على كل شيء وغادرنا لنستعد للسفر فلقد كنا بالثلاثاء ولم يتبقى سوى يومين، باءت لي تلك الفرصة مناسبةً جدًا لأطوي جميع ما حدث وأذهب، وخاصةً إذا كان السفر إلى مكانٍ له معزةٌ خاصة بقلبي، زهرة الجنوب، أسوان.

❊❊❊❊❊

عدتُ للبيت، ولكن هذه المرة عدتُ بعقلي فقط، تركني قلبي معها ولم يأتِ معي، سيطر الشتاء على جميع الفصول مرةً أخرى، عمَّ السواد على كل الألوان التي أراها، أصبحتُ لا أرى غيره، هناك وجعٌ يعتصرني من الداخل ولا أقوى على مواجهته، أصبحت صامتًا، منعزلًا، أنظر لهاتفي ببلاهةٍ شديدة غير مكترثٍ بمن يتصل، حتى والدي ورحمة، لم يعرفا شيئًا عن ما يحدث بداخلي، وصديقتي المقربة التي لم أخبرها أي شيء عن حبيبة من الأصل، وكان مبرري الوحيد هو ضغط الامتحانات وقلقها، لم يصدقوني ولكنهم جاوزوا ذلك عندما وجدوني أستعد للسفر إلى أسوان، كنت أحتاج لهم كثيرًا ولكني لم أُشعرهم بذلك، كان الحزن قد أقنعني بأنه لا ذنب لأحدٍ في مشاركتي له، فوحدنا نعلم ماذا يفعل بي، فهو قاسٍ جدًا إلى درجة أنه لا يفارقني حتى في نومي، أصبحنا أصدقاء رغم تنافر قلوبنا إن كان له قلب..

سافرت لأسوان، وأنا أحاول بأقصى ما عندي أن لا يرون ما بي من وجعٍ وحزن، كنت أخبئ ذلك بحرفيةٍ بالغة بين طيات ابتسامتي، ولكني لا أنكر أبدًا بأن تلك الرحلة قد أخذت من حزني الكثير، لم ينتهِ أعلم ذلك ولكن إذا ما شاركت حزنك لمكانٍ تحبه فسوف يتبدل حزنك إلى استمتاعٍ بالحزن، فهي أسوان، القطعة المباركة من ناموس الراحة النفسية..

فهي زهرة الجنوب، المتجر الفريد من نوعه، بدءًا من الأثواب النوبية الجميلة، انتهاءً بقطع الآثار المقلدة، وبيوتها وناسُها اللذان لا يختلفان كثيرًا عن تلك الآثار، ولكنها آثار حية، ليست مقلدة، فهي حقيقية، وحقيقية جدًا..

طقسها وجمال الطبيعة بها لن تجد مثلهما أبدًا حتى وإن طفت العالم مرتين أو ثلاثة، أما عن آثار قدمائنا العباقرة، فالآثار هنا لها ملامح خاصة، فهي تمتزج امتزاجًا تامًا مع ملامح مواطنيها في تقاربٍ يلتقط صورةً طبيعيةَ للحياة. ستشعر وأنت تزور آثار قدمائنا الموجودة هناك، أنك ترى بعينك لوحةً يتداخل فيها الإنسان والمكان ليكونوها بهذا الشكل المتناسق بأريحية تامة، ومن بين تلك المعابد معبد «كوم أمبو»، الذي يعود تاريخه إلى عام ١٨٠ قبل الميلاد لعبادة الآلهة «سبك وحورس»، وهو يوجد على ربوةٍ عالية تطل على نهر النيل، ويمتاز بنقوش جدرانه البارزة. وهناك أيضًا أحبُ المعابد لقلبي؛ معبد «إدفو» الذي يعد من أجملهم وأزهاهم على الإطلاق، فهو يجمع بين الطراز الفرعوني واليوناني، وقد أنشئ لعبادة الإله «حورس» ويُروى على جدرانه قصة الحرب الشهيرة بينه وبين عمه «ست» إله الشر، حرب قصاصٍ فاز بها «حورس» في النهاية، وهناك أيضًا معبد «فيله»، وهو معبد الآلهة «إيزيس»، رمز الحب والوفاء، تلك التي طافت مصر كلها لتجمع أشلاء جسد زوجها «أوزوريس» الذي قتله أخوه «ست»، وجعلت من ابنها «حورس» منتقمًا لوالده، وهناك العديد أيضًا من المعابد الصغيرة، مثل معبد «أمنحوتب الثالث»، و«هيكل تحوت»، «المعبد البطلمي». والكثير والكثير من الآثار التي تقطن بوجداني وأحفظ تفاصيلها كما أنني قد ولدت هنا..

تلك هي المدينة التي أهواها وأهوى جميع من يهواها، سُكانها الجُمَلاء، المعنى الحقيقي للطيبة والإنسانية والجود، أعشق سمارهم، وموسيقاهم، أعشق النوبة بكل ذرة ترابٍ فيها..

ولكن سفرنا المفاجئ إلى هناك لم يكن للتنزه أو ما شابه ذلك، فلدينا مهمة يجب علينا فعلها.

فاتحاد طلابنا ينتمي إلى جميع المؤسسات الخيرية الحقيقية، لا مؤسسةٍ بعينها، فنحن ننتمي للفقراء، للكادحين، لليتامى والمساكين، ننتمي لكل من يمد يده للمساعدة ومن لم يمد، هكذا سمعتُ الله يقول في جميع كتبه السماوية..

وسفرنا لأسوان بالتحديد، هو لأنه قد حدثت هزة أرضية أطاحت بمعظم بيوت أهل قرية «كوم أمبو»، وبيوتهم ليست معقدةُ كبيوتنا نحن القاطنين بالقاهرة وأشباهها، فبيوتهم بسيطةُ كقلوبهم، يعتبرون الشمس هي ساعتهم، يستيقظون بها وينامون عندما تأفُل، لذا فلقد قررنا الذهاب ومعنا بعض المتطوعين من الجامعة وأصدقائنا..

وبرغم أن هؤلاء المتضررين قد لا يجدون طعام الغد، يقدمون لك طعام اليوم بنفسٍ راضية، يؤثرون على أنفسهم حتى وإن اشتدت حاجتهم لهذا، كان العمل وإعادة بناء بيوتهم صعبٌ إلى حدٍ كبير، ولكن تكفي ابتسامة الأطفال هناك، تشعر بأنك تعمل عملًا عظيمًا ومقابله أعظم، حتى أتى آخر يومٍ لنا هناك، أتذكر تفاصيله كاملةً كأنه قد حدث بالأمس..

كنا قد انتهينا من العمل في بيت أحدهم حتى أتانا صاحب البيت يشكرنا واقترح علينا برَد معروفنا بمعروفٍ أكرم، اندهشنا من قوله فقال بلكنةٍ عفوية:

- سنذهب بكم إلى الدرويشة، فإن دعاءها مستجاب وقلبها بباب السماء واقفٌ فاغتنموا الفرصة.

لم يُثار فضولي كبقية من معي الذين أسرعوا معه إليها، دخلوا جميعهم وطلبوا منها ما يتمنون حدوثه إلا أنا، مال على أذني ذلك الرجل قائلًا:

- لا تضيع الفرصة، فإنها درويشةٌ لا تُرد دعوتها.

لم يكن هناك ما أخسره، فدخلتُ ولم أكن مقتنعًا بما يقولون تمام الاقتناع، وجدت امرأةً أعتقد أنها جاوزت السبعين ربيعًا وبجوارها امرأةً تصغرها بأعوامٍ لا تُذكر، قالت تلك المرأة التي تجلس بجوارها:

- ادعُ يا ولدي فهي تسمعك.

أخذت تدور الأفكار والدعوات بداخلي، لا أعرف ما أريد!، الأفكار كثيرة برأسي ولا ينطق لساني بشيء، حتى وجدتني أهدأ قليلًا وأغمض عيني وأقول:

- قولي لها أن تدعو لي بأن أجد ما أبحث عنه.

اندهشت تلك المرأة من قولي فقالت:

- سمِّ حاجتك يا ولدي!.

ابتسمت وأنا أقوم متجهًا إلى الخارج وقلت بهدوء:

- الله أعلم مني بما أريد.

خرجت وفي أُذني عبارة أبي تتكرر في أذني بلا انتهاء

«دع الله يختار لك.. فمن صنع طريقًا أولى بإنارته»..

انتهت الرحلة، عدنا إلى القاهرة آمنين مطمئنين، لا تزيغ عن قلوبنا ابتسامة تلك الوجوه السمراء النقية فرحين بما فعلنا لهم، وتلك العرافة لم تذهب من رأسي أيضًا، تأتيني في منامي كثيرًا وأستيقظ لا أتذكر شيئًا مما رأيت..

وفي يومٍ ما، أتذكر أن صديقًا لي قد وسوس له الشيطان في أذنيه فبال هو في أذني، غوى لي أن هناك مشروبًا غازيًا يساعد على تنشيط الذاكرة وليس به كحول، واستدل على أن الكحول يُذهب العقل فكيف ينصحني به لأنشط ذاكرتي!، فسقاني خمرًا للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، واحتج بأنه فعل ذلك لأنه رآني قد تغيرتُ في الفترة الأخيرة، ساءت حالتي النفسية كثيرًا، تقربتُ من العزلة فتقربتْ مني، أصبحتْ قصيدة «وحدك» التي قالها «درويش» هي المحرك الرئيسي ليومي، لذا فعل ذلك ليساعدني فلم يعد بيننا وبين امتحانات نهاية العام سوى أيام، وإن كانت نيته صالحة، ففعله طالح، وانتهت صداقتنا من ذلك اليوم، ولكن تأثير الخمر لم ينتهِ في ذلك اليوم، فأنا أتذكر ما حدث يومها ويُعاد في ذهني حتى وأنا أكتب الآن..

شعرتُ أن قدميَّ ليست على الأرض ويديَّ جناحان أُحلق بهما وأنا على مقعدي في المقهى، لا أشعر بشيء يُزعجني، فقط أطير..

وظللت هكذا حتى أقلني صديقي هذا إلى البيت، ومن حُسن الحظ أن أبوايَّ كانا نائمين فقد كانت لتهدم بيننا أشياءٌ لن تبنى مجددًا، دخلتُ غُرفتي ووجدتني أجلس على مكتبي وأنظر إلى اللاشيء، أخذت أضحك كثيرًا وكثيرًا حتى بلّت دموعي الأوراق، تلك الأوراق التي كانت المؤنس الوحيد لوحدتي، فكنت أكتب بشراهةٍ في تلك الفترة، وحينها تمَلّكني هاجس الكتابة فكتبت، كتبتُ وتحوم حولي خيالات كل شيء، ياسين، رحمة، صديقتي تلك، وحبيبة، أرى حبيبة تقف بعيدةً تنظر لي وتضحك، عجبًا للضاحكين الممسكين بأيديهم سكاكين تنحرنا، لا تخطيء عيناها هدفها، تصوب أسلحتها ناحيتي بدقة مذهلة، كلما حاولت الوقوف ترميني بسهمٍ يبتر قدمي بترًا، ولكن هناك لحظةُ تتجلى فيها القوة للمرضى والمساكين، منهم من يهرع إليها، والكثير لا يملك شجاعةً تُبعده عن مرضه، هناك من يتداوون بالداء، ولكن شاء الله حينها أن أخطوا خطوةً للنسيان والشفاء، فوجدتني أكتب بيدي حينها المشهد الأخير..

« ليست النهاية ..

أكتب لكِ بعد ما ظننت أني سأذهب بعيدًا، بعد ما قررت أن أتوقف عن ممارسة كل ما يُشعرني بأني ما زلت حيًا، سأعتزل الناس إذن، وأبني هاهنا ديرًا لن يدخله سواي .. ها أنا ألوح لكِ من على شاطئي، أراكِ هناك تلوحين بالوداع لشخصٍ آخر، أقرؤك السلام يا من جعلتني أؤمن بنفسي ثم هديتني إلى طريق الكفر الأبدي، سلامًا يليق بوجعي بعدك، سلامًا من رجلٍ قد ظن أن القلم والخيال سلاحه وقوته فقرر أن يتجرد منهما ..

لن تنسيني، فلم أُخلق لأُنسى، أنا على يقين بأنك مازلتِ تستمعين لـ جاهدة، وتجلسين بمفردك بين أيادي الظلام كما عودتكِ، أظنكِ أقلعتي عن قهوة تشربينها بمفردك، وأظنك أيضًا تشتاقين لي ولكني أثق -آسفًا- بأن ذلك القلب الذي هزمني لن ينتصر لكِ أبدًا، أقسم لكِ بهذا .. ها أنا ذا، ذلك الرجل المسموع قلمه، الذي تذهب الأضواء معه حيث ذهب، أبكي بصوت لا يسمعونه، ومن هنا غيري حتى يسمع!، يبدو أن غرفتي قد أصبحت ديرًا كما ظننت!، ويبدو أنني لم أفلح في انعزالي عن كل شيء، أكتب الآن وأنا أحبس كلماتي أن تقول ما لا أريد قوله، أقول ما تمليه عليّ إرادتي الآن، ما زلت حيًا، سأظل أكتب، سأظل أحيا رغم أنفك، لست قويًا كما تعلمين ولكني لست بهذا الضعف أبدًا، كنت أحتاج فقط لفرصة كي أجد سبيلًا بعيدًا عن سبلك الواهية لألقاني، كنت أفتقر إلى دليلٍ قاطع بأني نبي ولدي ذو رسالة فلا وقت لدي للاستسلام،

لا أمتلك خيار الانسحاب، أردت شيئًا يجعلني أؤمن بنفسي مجددًا ووجدته .. سأكتبُ.. سأظل أكتب فإنها ليست النهاية..

فإني أراها تأتيني كل يوم تأتيني في منامي تمسك بيدِ تلك العرافة ولكني لا أحدد ملامحها، ولكني أعرفها جيدًا، فهي لا تشبه أحدًا.. فهي فريدة.

هى..

أنا لا أشبه أحدًا فأنا فريدة، هكذا قال لي معاذ..

الفتاة الوحيدة ببيتٍ يملؤه الذكور، علمتني أمي كيف أتحمل مسؤولية بيتٍ بأكمله وأنا لم أتجاوز العاشرة بعد، وكأنها كانت تعلم بأنها سترحل تاركةً ورائها زوجًا وثلاثة أبناء، أنا أصغرهم سنًا ولكن أكبرهم عقلًا..

تعلمتُ كيف تكون الأنثى أُمًا لأولادٍ لم تنجبهم، وأن عليّ دائمًا أن أعطي كل ما عندي دون أن أنتظر أن آخذ شيئًا، تعلمت كل ذلك دون أن أعلم عني شيئًا..

يعمل والدي مهندسًا بـ»مصر للطيران»، وبرغم أنني كنت دائمًا أهوى أن أذهب معه إلى عمله وأرى الطائرات تحلق في السماء، لم أجرؤ على الطيران أبدًا، حقيقةً أو خيالًا..

كنتُ متفوقة في الدراسة في جميع المراحل، حتى انتهى بي المطاف إلى مثل ما انتهى المطاف بأبي، كلية الهندسة جامعة القاهرة..

ولكن عندما حان وقت اختيار قسم الدراسة بالكلية، لم اختر قسم «الميكانيكا» كوالدي، فلطالما ما كنت أتساءل كيف للإنسان الآلي أن يكون له ماهيةٌ نعترف بها نحن البشر الحقيقيون، فوجدت أن هذه الإجابة يمكن أن أجدها في قسمٍ واحد، قسم» الميكاترونكس»..

ويبدو أن كوني البنت الوحيدة لم يتوقف على البيت فقط، فقد كنتُ البنت الوحيدة بهذا القسم أيضًا، ولم يدفعني ذلك إلى الرجوع عما اخترت، فأنا امرأةٌ مستقلة، أعرفُ ما أريد، لي قدمين ورجلين ورأس مثلما يمتلك أبناء آدم، لا فرق بيننا في شيء سوى أنهم لا يؤمنون بهذا..

أعشق القراءة، فإني أرى دائمًا أن القراءة هي السبيل الوحيدُ لتعيشِ إنسانًا، متفهمًا واجباته وحقوقه، فأنا أهوى القراءة في مختلف المجالات والفروع، ولكن للروايات مكانٌ خاص بقلبي، وخاصةً روايات «رضوى عاشور»، فلقد ذهبتُ معها إلى غِرناطة، وحفظت تفاصيل الأندلس عن ظهر قلب، وعشقت حُبها لمُريد، وهِمت بعشقهما لفلسطين، ولكن سيبقى كاتبي الأهم بينهم هو صديقي المقرب، معاذ ياسين..

فلقد احتفظت بكل ما كان يكتب من خواطرٍ ويعطيها لي لأقراها، كنت دائمًا ما ألهيه عنها فلا يتذكر أني احتفظت بها..

ومن هذه الأوراق ما عشقتها وحفظتها كأنها قد كُتبت لي.. فأنا أقرأها دائمًا قبل أن أنام، وهو لا يعلم ذلك، وعندما يتحدث عنهم أتظاهر بأني قد نسيتهم فور ما قرأتهم، لم يكن ينبغي له أن يعلم غير ذلك..

وهذا بعض مما كتب معاذ:

«وكأن الله لم يخلق غيرك، كأنه قد أفضى عليكِ بعضًا من جماله لتصبحين به على رأس نساء أهل الدنيا.

ربما تكون هذه هي رسالتي الأولى لكِ ولكني أؤمن تمامًا أنهم سيستخدمونها بعد سنواتٍ طويلة في إثبات أن هناك رجلًا قد سخر الله له جميع مقاليد ومفاتِح الكتابة ليكتب إلى امرأة ليست من البشر!، من البشر من هم ليسوا بشرًا! نعم.. فأنتي لا تنتمين سوى لكِ. أُرسل لكِ خطابي هذا مدرجًا معه بعض تفاصيلنا التي أعي أنك

فـور مـا تقرأينهـا سـتبدو نواجـزك في الظهـور معلنـةً عـن ابتسـامة تـشرق شمسًـا في منتصـف الليـل، هـذا الوشـاح الـذي تركتيـه لي يحمـل رائحتـكِ التـي لا تضـل الطريـق إلى أنفـي أبـدًا، هـذا الدعـاء الـذي سـمعتكِ تدعينـه لي خلسـةً دون أن تعلمـي، هـذا الليـل الـذي قـد تركنـا في سـاعاته ودقائقـه الكثـير مـن ضِحكنـا وحديثنـا الـذي لا ينتهـي إلا عندمـا يعلـن الفجـر مجيئـه فنتوضـأ بـما تبقـى مـن حديـثٍ أجلنـاه لليلـةِ المقبلـة، ويـأتي وقـت الصـلاة فـلا نـدري أي مخـدرٍ ذلـك الـذي نتناولـه فيجعلنـا ندعـوا لبعضنـا وننسـانا! ولا نلبـث طويـلًا حتـى نلتقـي في عالمنـا الآخـر.. عـالم لا يكـون فيهـا سـوانا.

أعلـم أنـك قـد تركـتِ لي كثـيرًا مـن ملامحـكِ عـلى وجـوه جميـع مـن تراهـم عينـي ولكنـى لا أدري أهـذا تسـتحقين عليـه شـكرًا حقًـا أم أنـكِ قـد أردتِ معاقبتـي! فكـم هـو بائـسٌ أن أنـادي جميعهـم باسـمكِ وأن أسـمع أصواتهـم كصوتـكِ وأن أراكِ في جميـع مـا أرى! لا أعلـم حقًـا . هـذه رسـالتي الأولى، فلتبـدأي في حفظهـم ورميهـم يـا عزيـزتي فلربـما قـد تقـع تلـك الرسـالة في أيـدي إحداهـن فترميـكِ بسـهمٍ لا تشـفين منـه أبـدًا، لا أنثـر العطـر فـوق مـا أقولـه ولكنـي عـلى يقـين أن نسـل حـواء بـأسره يتمنـى أن يكتـب لإحداهـن رجـلًا مثـلي قـد قصمـه قلبـه فأصبـح قويًـا لهـا وبهـا ولأجلهـا، وأن ليـس هنـاك رجـل سـيكتب لامـرأةٍ أيًـا مـا كانـت مثـل مـا أكتـب لـكِ، فإنهـم لا يمتلكـون عينًـا يرونـكِ بهـا مثـل مـا أراكِ.. دمتـي حُلـوة.»

لا أسوأ من شعور أنثى يتغزل رجُلها في أخرى، حتى وإن كانت الأخرى تلك من درب الخيال فقط، ولكنها في النهاية أنثى، والأنثى إذا أحبت فلا مكان لتاء التأنيث في حياة من تُحب سواها، فأنا أحبه، أحبه جدًا ولكنه لم يعلم ذلك..

كنت له كما كان يقول عني أنني صديقته المقربة، المرأة الوحيدة التي تفهمه دون أن يتحدث، ذلك الشخص الذي تخاف أن يربط بينهما رابط الحب فتخسره، كان يقول لي دائمًا أنه يخشى خسارتي كما يخشى خسارة والديه، يُحبني من زاويته الخاصة، دون عهودٍ أو روابط، وكنت دائمًا ما أوافقه على ذلك، وإذا قال ذلك أحد أصدقائنا من باب الدعابة فإنني أتظاهر بسخافة الموضوع كما يفعل هو الآخر، لم يفهم الغبي حينها أنني أحبه حتى اشتكى قلبي منه ومني..

كنت أذنًا صاغيةً له، أسمع الكثير عن معجباته وأضحك كأن الغيرة لا تقتلني، ويُكمل هو بسخافته المعتادة دون أن يدرِ ذلك، حتى يفيض بي الكيل أحيانًا ولا أضحك، بل أضحك كثيرًا..

كنت عضوةً معه في اتحاد الطلبة الذي يرأسه، فهو قائد حقًا، صلبٌ وذكي، يظهر للناس دائمًا بوجهٍ يهابونه، فكان الجميع ينادونه بالقائد، إلا أنا، فأنا الوحيدة التي أرى ما لا يراه الآخرون، لا يرون أنه طفلًا كبيرًا، ينزوي بركن غرفته إذا ما أغضبه أحدهم، يُحب ويكره بطفولية تامة، لا يعرف الخُبث، يبكي بمفرده، أو أمامي، يحب الجلوس وحيدًا، أو معي، فمهما

كانت شدته وبأسه فهو يعلم أني أراه من دون حجاب، أسمعه دون أن يخبرني، أشعر به دون أن يكون أمامي..

كنت أعلم أنه قد وقع في حب امرأةٍ أخرى، لم أخبره بذلك وانتظرت منه أن يفعل ذلك ولكنه لم يفعل، لا أعلم مما خاف ولكني انتظرته، انتظرته وأنا أعلم أنه سيعود إليَّ في النهاية، هكذا سمعت «جاهدة وهبة» تقول، قالت لي ذلك وأنا ممسكةً بإحدى أوراقه أشم ريحه فيها، كانت تقف على حافة سماعات الأذن بمقربةٍ من قلبي وغنَّت منكسرة: «وتهجركَ النساء جميعهم وتعود منكسرًا إليّ»، فصدقتها، وانتظرت، لم أسافر معه إلى أسوان رغم إحساسي المُلِح بأنه بحاجة إليَّ، وأنا أيضًا كنت بأمس الحاجة إليه، ولكن سوء حالة والدي الصحية منعتني من السفر معهم، وكلما كان يزداد اشتياقي له كنت أدعُو له بأن يهديه الله إليّ، وإن كنا لا نصلح لبعضٍ فليرمي الله في قلوبنا الهداية والصلاح، فأنا لا أريد سواه، هو آدم ببنيه بكل نسله، هو الوحيد الذي له الولاية على قلبي ولا أريد غيره..

كان يأتيني في أحلامي كثيرًا ولا أخبره، أعانقه عندما أحتاج لعناقه دون أن يشعر، في مرةٍ منهم، نمتُ كعادتي وأنا أحتضن ورقةً قد كتبها ونسيها معي، أعتقد أن تلك المرة كانت في سفريته تلك، كنت افتقدته بشدة فأتاني في رؤياي، أتذكر ذلك الحلم جيدًا، كنت نائمةً على كتفه وكان يمسك نفس الورقة ويتلوها في هدوءٍ يسحرني..

«أُرسل لكِ هذا الخطاب علّني أجد ريحك، علّكِ تخضعين لما يمليه عليكِ قلبكِ وتهرعي إليّ بكل ما أوتيتي من قوةٍ لتقفين هنا! وتعانقيني.. تعانقيني حتى يذوب ما بداخلك من خوف.. هنا حيث ملجأك وأمانك، هنا حيث صدري وأعلم أنك تجيدين التنفس هنا .. ربما أخطئ في حقك كثيرًا، ولكني لم أرَ أُمًا تسئم من ولدها أبدًا إذا غضب وحمَّلها نتيجةُ فعلٍ لم تفعله!، ولا أكترثُ بمن يقول كيف تكوني أُمًا لطفل يكبركِ سنًا، إن الأمومة لا تُقاس بالعمر أبدًا! فلو كانت بالعمر فلستِ أُمًا، وإن كان النقيضِ فليس هناك أُمًا سواك. . فلتذكرين يوم ما أهديتكِ باقة الورد التي تشبهكِ، وأذكري حينها أنكِ قد أجبرتي يديكِ أن تسكن مكانها خشية أن تفتحين ذراعيكِ لي وتعانقيني، شعرت بذلك وابتسمت، ربما مثل الابتسامة التي تُرسم على شفتيكِ الآن .. فلتغمضِي عينيكِ إذن، فإني آتٍ ومعي باقة أخرى من الزهور، وبعضٌ من الشيكولاتة التي تهوينها أكثر مني، فلتغمضِي عينيك يا صغيرتي فإني آت ..»

وكلما أقرأ ذلك، أمتثل لأمره وأغمض عيني كما أفعل الآن..

حتى عاد من سفره، ولكنه عاد شخصًا غريبًا لا أعرفه، استسلم للعزلة ولكونه وحيدًا، لم يعطني فرصةً لأساعده رغم علمه بأني أستطيع فعل ذلك، فصمتُ، وبداخلي سكاكين لا تبرح موضعًا إلا وأنهكته وأهلكته، وظللنا هكذا، نتحادث كالأغراب، يبعد كلما حاولت الإمساك به، حتى أتى اليوم الذي كان كالبرزخ فقسم حياتي جزأين متناقضين، أتذكر ما حدث في ذلك اليوم كأنه قد حدث بالأمس..

أتذكر أنه كان في أواخر ديسمبر، تحديدًا في الثالث والعشرين منه، كان الوضع قد بقي على ما كان عليه بعد عودته من السفر، ولم يكن بيدي شيئًا لأفعله، وكان لي فترة قبلها أرى يوميًا امرأة شكلها غجريٌ وملامحها غير واضحة، تأتيني وتمسك بيد أحد وتشير إليّ، كان يتكرر ذلك الحلم كثيرًا، ولكني لم أكن أبالي بذلك، شأنه شأن الأحلام التي نراها ونستيقظ غير متذكرين أيًا منهم إلا إذا رأينا شيئًا يذكرنا بهم.

ولكن في ذلك اليوم كان الحلم مختلفًا، لا بل كانت الرؤية مختلفة، فلقد رأيت تلك المرأة تأتي إليّ مبتسمة، يخلو فمها من الأسنان فتبدو ضحكتها نقية وسحرية، وكانت ملامحها واضحة أيضًا تلك المرة، وملامح من تمسك بيده أيضًا، تقول لي هذا هو محبوبكِ الذي تنتظرينه، كان معاذًا، كان جميلًا كما اعتادت عيني على رؤيته، يرتدي ذلك القميص الذي أهديته له في عيد ميلاده السابق، مبتسمًا، هادئًا، تفوح منه ريحه التي تميزها أنفي من بين آلاف الرجال..

استيقظت ذلك اليوم فزِعة، لا أفهم شيئًا، ثمة شيء ما يحدث لا أعرف ماهيته، أخذت الأفكار والهواجس تلتهم عقلي ولم يكن لدي فرصة لاستيعاب شيء، ولكني لم ألبث كذلك طويلًا، تكفل آذان الفجر بإخماد كل ذلك، وما كان لتلك الحرائق التي نشبت برأسي أن يطفئها شيء سوى الوضوء، توضأت وقمت للصلاة وبداخلي طمأنينة لم أكن أعلم من أين أتت ولكني الآن أعلم..

خلدتُ للنوم ثانيةً، ولكني استيقظت هذه المرة على صوت هاتفي، كان معاذ هو المتصل، لم أُجيب من المرة الأولى فلقد كنتُ فاتحةً عيني على أخرها، فلم يتصل بي منذ شهور، ولا يأتي الجامعة إلا قليل، ولكني أجبت من المرة الثانية، ودار حديثنا كالتالي..

- صباح الخير.

- صباح النور يامعاذ.. كيف حالك؟.

- بخير الحمد لله.. وأنتِ؟

تنهدت قليلًا قائلةً:

- بخيرٍ الحمد لله.

صمت قليلًا ثم قال:

- أريدُ أن أراكِ اليوم.. بأى حالٍ من الأحوال.. لابد أن أراكِ اليوم.

دُهشت من إصراره غير المعتاد فأجبت:

- خير يا معاذ.. أحدث شيء؟

أعاد ما قاله كأنه لم يسمعني:

- أريدُ أن أراكِ اليوم.

فكرتُ لثوانٍ، ثم قلت له:

- حسنًا.. سأراك في الجامعة.

- حسنًا.. مع السلامة.

أغلقتُ الهاتف ووجدتني بتلقائية شديدة أذهب إلى «دولاب» ملابسي وأنتقي نفس الفستان الذي كنتُ أردتيه في ذلك الحلم، ولم أكن أفهم لماذا فعلت ذلك حتى رأيته، كان يرتدي نفس القميص أيضًا، لم أُخفي صدمتي من رؤيته كذلك، وعلى الرغم من أن آخر مرة رأيته فيها هنا كانت لحيته كثيفة وتدل على عدم اهتمامه بنفسه، فإنه هذه المرة قد أتى مهذبًا إياها كما أحب دائمًا أن أراها، وعلى عكس عادته، فور ما رآني وجدته يقوم من مجلسه ليستقبلني!، أزاح الكرسيّ الذي من المفترض أن أجلس عليه لأجلس ووجهي ترتسم عليه علامات الدهشة، أعرفه من سنوات ولكني لم أره هكذا من قبل، وجهه مُشرق، ابتسامته مضيئة، ماذا حدث له ليصبح هكذا؟!، وما الذي قد سوء نفسيته إلى هذا الحد الذي كانت عليه؟!، آلاف الأسئلة تدور في رأسي وهو صامتٌ ينظر إليَّ في هدوء تام، قطعتُ ذلك الهدوء وسألته:

- أخافتني يا معاذ! ماذا حدث؟

ابتسم قليلًا وقال:

- لا شيء.. ولكن حدث معي شيء غريب لابد أن أخبركِ إياه.

- ماذا حدث؟

- أولًا يجب أن أخبركِ بشأن شيء خبأته عنكِ.. ولا أعلم لماذا لم أخبركِ ولكني لم تكن لدي الرغبة في ذلك..

صمت لوهلةٍ ثم أكمل:

- سبب كل ما حدث هو أنني أحببت.

جاهدتُ بأقصى ما عندي لأخبئ ذلك الانكسار الذي اعترى وجهى فجأة ونجحتُ في ذلك، ما كان لقلب الأنثى أن يخطئ في ذلك أبدًا، أردف قائلًا:

- ولكنه لم يكن حبًا.. كان خطأ من بدايته لنهايته.. ولكني شفيت منه تمامًا.. والفضل لكِ.

أشرتُ بإصبعي إليَّ مندهشةً:

- لي أنا؟!!.

رد بثقةٍ بالغة:

- منذ أن عرفتكِ وأن أخاف من خسارتك.. وابتعدت عنكِ طوال هذه الفترة لأني لم أكن واعيًا تمامًا بما أفعل.. فخفت.. خفت أن أخسركِ.

شعرتُ حينها أنه قد حان وقت قول كل شيء، فقلتُ من غير تفكير:

- لن أخسرك مهما حدث.. كان عليّ أن أقف بجانبك في هذه الفترة.. ما كان لك أن تفعل ذلك أبدًا يا معاذ.

صعقني قائلًا:

- المهم.. الشيء الغريب الذي حدث.. كنت قد سافرت لأسوان كما تعلمين.. وهناك.. رأيت عرافة أو كما يطلقون عليها درويشة.. وطلبتُ منها أن تدعو لي بأن أجد ما أبحث عنه.. ولم أكن أعلم ما الذي أبحث عنه من الأساس.. ومن وقتها وأنا أراها في المنام دائمًا.. تأتي وهى تُمسك بيدها أحدٌ ولكن ملامحه لم تكن واضحة.

صمت طويلًا تلك المرة وعيني جاحظةً على آخرها، لا أستوعب ما يقول بتاتًا، غير معقولٌ ذلك الذي يحدث!!، ولكنه لم يكتفِ بذلك وقال:

- ولكن اليوم رأيت ملامح تلك الفتاة التي تمسك بيديها.. فهي لم تشبه أحدًا أبدًا.. فهي أنتِ يا فريدة.

توقف الزمن للحظات، لا أرى شيئًا أمامي غيره، يبتسم بهدوء كأنه لم يفجر قنبلةً منذ ثوان، أردتُ أن أخبره بأني رأيت ما رآه بالتفاصيل نفسها، وإن كان هو قد رأى تلك الدرويشة في الحقيقة فكيف لي أن أراها أنا في الحُلم، أردت إخباره بكل شيء، عن الأوراق والأحلام وكل شيء، ولكننى وجدت نفسي أتجاهل كل هذا وأطلق ثورتي للمرة الأولى في حياتى :

- معاذ.. أنا أُحبك..

هو..

لم تكن النهاية.. بل كانت بدايتي نحو عالمي الحقيقى الذي لم أظن يومًا أنه موجودٌ إلا في خيالي الحالم فقط..

فلقد أيقنتُ أن حبي لحبيبة لم يكن سوى سُلمٍ أصعد به إلى أسمى درجات الفوز بكل شيء، فمن ذاك الذي يمكنه صعود الطابق الآخير دون أن يمر بالطوابق السُفلى، فلم يشعر آدم بالجنة حقًا إلا عندما وطأت قدماه الأرض..

كانت صديقتي المقربة، نتشارك الاهتمامات والتفاصيل الصغيرة، وأحيانًا ما نتحدث (بنفس الحديث) في الوقت ذاته، ألجأ إليها في كل شيء، فهي تعرفني أكثر مني، ولكني ساعدتها في ذلك، فلقد تركت لها أبوابي جميعها مفتوحةً تدخل من أي الأبواب شاءت؛ فدخلتهم جميعًا، فكرتُ كثيرًا أن تكون هي الفتاة المناسبة لي، فلن أجد من يجيد التعامل معي مثلها، فهي ذكية، ذكيةٌ جدًا وأنا أُحب المرأة الذكية، القوية، القارئة النهمة، فلقد جُمعت فيها الصفات الحسنة كلها، الخُلقية منها والخِلقية، فهي المرأة المثالية في نظري..

وبرغم إيماني بكل ذلك؛ لم أُحبها، كنت أتفنن في ممارسة الغباء وأتحجج بحجج واهية؛ فكنتُ أرى أصدقائي دائمًا ما يعانون من الحب وينتهي الأمر بالفراق، فكنتُ أقول في قرارة نفسي لن أقوى على خسرانها وإن حدث ذلك رُغمًا عن إرادتي فسوف يكون الأمر هينًا ولو قليلا، كنتُ غبيًا، غبيًا جدًا..

وعندما ساءت حالتي النفسية؛ وجدت نفسي من دون تفكير أهرع إليها، وقبل أن أدنو منها بشبرٍ واحدٍ وجدتني أتراجع أشبارًا وأشبارًا، ما ذنب تلك لتدفع ثمن تلك، كم أنانيٌ أنا عندما لا ألجأ إليها إلا في أوقات ضيقي فقط، فلقد أهملتها في الفترة القصيرة التي قضيتها مع حبيبة، ولم أكتفِ بإهمالها فقط!، بل لم أخبرها عن سبب إهمالي وبُعدي غير المُسَوَّغ وأن قلبي متعلق بواحدة لا ترقى بالمقابلة بها، وبرغم كل ذلك!، مدت يديها إليّ عندما شعرتْ بأني أحتاج إليها، فرفضتُ يديها، كنت غبيًا، غبيًا جدًا..

عوقبت على غبائي هذا كثيرًا، حتى أتى الفرج من الله، كانت تلك العرافة تأتيني في منامي تمسك بيد أحد ما ولكن تفاصيل وجه ذلك الشخص لم تكن واضحة، وبسبب أني كنت في مرحلة الاستشفاء من حبيبة لم أهتم بتلك الأحلام، حتى ظهر ذلك الشخص واضحًا أمام عيني، وللمرة الأولى أيضًا أرى تلك العرافة تبتسم، وذلك الشخص أعرفه تمام المعرفة، إنها فريدة، تبتسم كعادتها، ترتدي نفس الفستان الذي أهديته لها في عيد ميلادها السابق، وكانت تلك العرافة تشير إليّ وتهمس لها في أذنها ثم تبتسما سويًا، حينها؛ أيقظني صوت آذان الفجر فقمت هادئًا مطمئنًا، ومن الغريب أني لم أندهش من أن تكون فريدة هي الدعوة المستجابة، فلقد أكدت لي فترة انعزالي ذلك الأمر، فما يجوز لمختلفٍ مثلي إلا أن تكون حبيبته فريدة..

اتصلت بها في صباح ذلك اليوم وقد نويت الذهاب إلى الجامعة بعد فترة انقطاع دامت طويلًا، فرح والدايَّ كثيرًا من رؤيتي هكذا، وبرغم أني لم أحكِ لهم شيئًا فلم يُضيقا عليّ الخناق، كنت متأكدًا من أن والدي شعر أن حبيبة وراء ذلك وأخبر رحمة بذلك لكي لا تقتحم عُزلتي، محظوظٌ ذلك الذي يملك أبًا مثل أبي برغم أنه ليس هناك مثله أبدًا، فالحمد لله عليه سرًا وجهرًا، علانية وسرًا، حمدًا موصلًا إلى أن ينتهي الحمد..

ذهبت إلى الجامعة وانتظرتها، وفجأة؛ وجدت»درويش» يكمل ما لم يكمله في المرة الأولى، ليتني انتظرت وقتها وسمعت تحذيراته، فلقد قال عبر ذلك «الراديو» الموجود بذلك المكان الذي كنت فيه مع حبيبة في اليوم المشؤوم، قال مخاطبًا إياي:

« وانتظرها..إلى أن يقول لك الليل لم يبقَ غيركما في الوجود.. فخذها إلى موتك المشتهى.. وانتظرها»

الآن فهمت، زادني الإصرار إصرارًا، ولكن تلك المرة أشعر بأني أسير في الطريق الصحيح، لست قلقًا ولا خائفًا من شيء، فقط أنتظرها..

حتى أتت، كنت قد رأيتها مراتٍ كثيرة، ولكن هذه المرة بدت مختلفة عن كل المرات السابقة، كانت ككل شيء ولم يكن شيء مثلها، كانت المرة التي أدرك فيها حقيقة اسمها، فهي لا تُشبه أحدًا، فهي فريدة..

أخبرتها عن نبأ رؤياي، توقعت جميع ردود الأفعال في الدنيا من دهشةٍ وصدمةٍ وتعجب ولم يحدث شيء منهم!، صارحتني بحبها فصُدمت!، والصدمة الكبرى كانت عندما أخبرتني بأنها رأت مثل ما رأيت في اليوم والوقت ذاتهما، لم يكن ذلك الشعور الذي يملأني تجاهها حينها حبًا فلم أصارحها بذلك، قد شغفتها حبًا وقد شغفني شغفها فأحببتها..

مالت كفة الحياة إلى ناحيتي، كانت صديقتي حقًا ولكن الأمر مختلف، الحديث مختلف، الرابط مختلف، شخصُ يشاركك أحلامك وهمومك حتى تفاصيلك التافهة، يشاركك في كل شيء، يتحكم في مِزاجك ويحوله متى أراد، يعرف خباياك التي تجهلها أنت عن نفسك، فكانت فريدة هي الشيء الذي تصالحتُ به مع العالم من جديد..

❋❋❋❋❋

الصمت علامة القبول، هذا أمرٌ متدارجُ بين عُرفنا وطبعانا الشرقية، أما الرفض فليس له علامات، والتمرد يبغض الجبناء، وأنا مثل والدي، لا ينبغي عليّ يومًا أن أُساق بجبنهم المختبئ في بنادقهم الهشة، فإن كان والدي من أكثر الذين جابهوا الظلم فأنا أشرسهم وأشدهم بأسًا..

تحسنت حالتي النفسية وأصبحتُ أرى الأشياء كما يجوز لها أن تبدو، واستفقتُ والتفتُ ثانيةً إلى ما كنت عليه، بل عدتُ أنشط من ذي قبل، آمنتْ فريدة بمبادئي وقضايا الوطن مثلي، لم تكن من تلك النسوة التي تخاف من الحشرات والضوء الخافت، كانت امرأة قوية فقويت بها، وازددتُ حماسةً وانتشارًا في كل بقعة من بقاع هذا الوطن المُغتصب، أُعلن رفضي وتمردي على سياساتهم النجسة، لا أبرح موضعًا إلا وكتبتُ فيه «الغضب الساطع آتٍ» بينما فريدة تطيب الجدران بـ«لن يقفل باب مدينتنا فأنا ذاهبةٌ لأصلي»، زرعنا مبادئنا في حقول العامة والخاصة وانتظرنا الحصاد، وعندما بانت أطراف أصابع ثورة الجياع التهمتني الدبابير، لم يفكروا مجرد التفكير في اصطياد فريدة فوالذي نفسي بيده لكانت لتقوم قيامةُ صغرى لاتذر منهم أحدًا، وبرغم أنني كنتُ ناشطًا في الجامعة لم يتسنَّ لي زيارتهم من قبل، ربما لأنني كنت محددًا لنطاق حديثي ومواضيعي، والمكان أيضًا، فاهتمامي الأكبر كان ينصبُّ تجاه القضية الفلسطينة، أما الآن فقد قوت شوكتي واشتد عودي، وكانت زيارتي الأولى لعش الدبابير مميزة عن لاحقيها، فأنا أتذكر ماحدث فيها بالتفصيل..

طاولةٌ مستطيلة، صمتٌ قاتم، أصوات أقدامٍ تأتي من الخارج ولا يأتي أحد، كنتُ محافظًا على هدوئي وثباتي الانفعاليّ، وفي لحظةٍ مفاجئة فُتح الباب لتدخل تلك القدمان صاحبة الصوت، كانتا لشاب يكبرني بعامين أو ثلاثة على الأرجح، وجهه بشوش، ليس بضخم الجثة كما توقعت ولكن كان معتدلًا في الطول والوزن، دخل وأغلق الباب خلفه وجلس أمامي ليدور بينا الحوار كالآتي..

- أهلًا بك يا معاذ.. ماذا تريد أن تشرب.

- لا أريد شيئًا.

صمت قليلًا ثم أخرج هاتفه الذي كان ثابتًا على صورٍ معينة وأراني إياها، كانت تلك الصور لي، وجمعت بين لقاءاتي في الأحزاب والندوات والجامعة أيضًا، ثم أراني صورًا لفريدة، وأخرى لياسين ورحمة، ولا أعلم متى التقطت كل هذه الصور وكيف أتوا بها، فلقد تبقى فقط أن يريني تلك الصور التي أخذتها لي أمي وأنا طفلًا ذا عامين أستحم في الإناء الأخضر المقدس عندها، أراني كل ذلك ثم وضع هاتفه على الطاولة وابتسم، لم تكن ابتسامة صفراء فأنا أميزها جيدًا، توسمتُ فيه شيئًا طيبًا فقررت حينها معاملته كإنسان ناسيًا كونه واحدًا من الدبابير التابعة للغراب الأكبر..

قال:

- نعلم عنك كل شيء.. وليس عنك فقط.. بل نعلم عن الجميع كل شيء.. لكل واحدٍ منكم ملف خاصٌ به.. من يوم ميلاده إلى أن يموت.. وهذه عينةٌ من تلك الملف.

لم أُعقب فأكمل وهو يمشي في الغرفة:

- هناك دستورٌ يحكمنا.. وهناك قانون أيضًا يفصل بين الحق والباطل.. ولك الحرية في التعبير عن رأيك يا معاذ.. ولكن في حدود الحدود.

أجبته بسخريةٍ واضحة:

- حرية و حدود!.. كيف للنواقض أن تجتمع؟!.. فالحر حر والعبد عبد.. والحق حق والباطل باطل.. كذلك الحرية لا تمت للحدود بِصلة.

ابتسم ابتسامةً واثقة وقال:

- خطأ.. خطأ كبيرٌ يا معاذ.. إن لم تكن الحرية بقيود فسوف تتحول الدنيا إلى فوضى عارمة.. فالأرض حرةٌ أليس كذلك؟! فلماذا خُلقت الجاذبية إذن؟!.. والشمس حرةٌ أليس كذلك؟! فلماذا لا تأتي ليلًا حتى وإن كانت قادرةً على العمل وحرة؟!.. الحر حر يا معاذ هذا حقيقي ولكن لا تنسَ أبدًا أن للحرية قيودُ لابد من الالتزام بها وعدم الحياد عنها.

بدا أسلوبه وهدوئه مريحين بالنسبة لي، وبرغم عدم اقتناعي البتة بما يقول؛ لم يُفرض عليّ رأيه ووجهة نظره، كان يعرضها بأسلوب حضاري كاد يشككني أن من أحضروني إلى هنا أخطأوا عِش الدبابير وأتوا بي إلى المقهى الخاص بي في وسط القاهرة، فكرتُ قليلًا ثم رددت واضعًا الكرة في ملعبه:

- كلامك صحيح.. ولكن! تختلف القيود باختلاف العقول.. فجميع الأمثلة التي طرحتها أنت تمثل حريةً وقيودًا عقلانية ومنطقيةٌ وذا غرضٍ أيضًا.. أما قيودكم التي تضعونها لحريتنا ما لها بالعقل من شيء، تريدوننا أن نحبس أنفاسنا ونتنفس عبر خوفنا فقط،

نـرى مـن خلـف الضبـاب الـذي تنشرونـه في كل مـكان.. نصحـو مـن النوم لنُربـط بسـاقيةٍ لا تكـف عن الـدوران إلا عندما تـرى ظهرك قـد وهن فتقف لثانيـةٍ تودعـك وترحـب بثورٍ آخـر.. أهذه هـى الحريـة! أهذه هـي القيود!.. أهـذي هي مـصر التـي في خاطري وفي فمـي وفي «المشـمش»!!.

بدأت ابتسامته في الذهاب قليلًا ويحد من نبرة صوته قائلًا:

- اهدأ يا معاذ فإن أكملت الحديث هكذا لن تخرج من هنا.

سكت قليلًا وأردف:

- أنا لا أريدك أن تبقى هنا.. أريد مساعدتك فساعدني.

لم أتردد للحظة ووجدتني أقول له:

- لا أريد مسـاعدتك.. فمهما صلحت نفسُـك فأنت منهـم في النهاية.. لن يُغير إعجابي بشـخصك مـن الأمر شيء.

حـرك رقبتـه يمينًـا ويسـارًا مشـيرًا أنـه لا فائـدة من ذلـك، اتجـه ناحية البـاب ونـادى عـلى رجلـين ليأتيـان ويأخـذاني إلى سـجنٍ انفـرادي، وتلـك؛ كانـت المـرة الأولى التـي أرى فيهـا القضبـان حقيقـةً غـير متخفيـة..

*****

السجن.. القضبان الوردية, الظلام المُنير, معقل اللامنتميون الحقيقيون وأصحاب القضايا والهموم, مأوى من يحمل على عاتقيه حزن شعبٍ بأكمله, هنا حيث نختلي بأرواحنا من دون عوائقٍ أو مسافات, هنا حيث نجد أنفسنا.

لن تروا سجنًا في السينمات وما تصوره الكاميرات ويقرره المخرج والمؤلف, فالسجن الحقيقيّ يكمن في الكواليس, وراء الكاميرا والأضواء, فلا تنخدعوا بتلك الصورة التى رسموها عن السجن بأنه عقاب, فالعقاب الحقيقيّ أن تنسى ماهيتك وإنسانيتك, سيحولوك إلى آلة, تأكلُ لتعيش وتعيش لتأكل, سترى عبر ثقب الرؤية ببندقيتهم فقط, سيجعلونك تهمل النور فلا تصدقهم, فلا تستمع إليهم, فلك حياةٌ واحدة, إما أن تحياها رافعًا رأسك وإما أن تسجد لأحذيتهم وتُقبلها..

ربما يكون الوضع مأساويًا فقط عندما تمتد أوردة قلبك خارج السجن, فهناك أُناسٌ مهامهم الرئيسية في الحياة أن يمدونك بالدم والهواء, فربما تلتوي أنابيب التنفس تلك عبر تلك الجدران والقضبان, ولكنى أشعر بهم جيدًا, أسمع دعاء رحمة, وتشجيع ياسين, وأرى فريدة, هي معي حيثما أذهب, وفور ما أخرج من هنا فأنا أعلم ماذا يجب عليّ فعله تجاهها, ولكني ظللت كثيرًا هنا, وكلما يزيد الوقت تزيد قوتي وإصراري, حتى أخرجوني قائلين لي بأني سأبقى تحت أعينهم فينبغي عليّ توخي الحذر فالمرة القادمة لن أخرج كما دخلت, لم يخيفني عواؤهم ذلك, فسيبقى الراعي راعٍ والكلاب كلابُ..

خرجتُ وأنا محملٌ بوصايا كانت مكتوبة على جدران السجن, مفعمٌ باشتياقٍ كبير لأهلى ولفريدة, لذا؛ قررتُ أن تصير تلك الكلمتين كلمة واحدةٌ ويندرج الخاص تحت العام, قررت أن أتزوج فريدة, فالزواج هو البداية وليس النهاية, بداية عمرٍ جديد مع من اخترته شريكًا لك في كل شيء, وإن كان شريكًا لك قبل الزواج فالأمر سيكون مغايرًا تمامًا بعد الزواج, فهي حلالك إذن, تحتضنها متى شئت, يراكما المجتمع فردًا واحدًا إذا ذكر أحدهما دل على الأخر, فالزواج لبنةٍ يُبنى بعدها البيت كله, وهذا البيت هو الوطن الذي يصير كوكبًا بعد ذلك..

تزوجنا, كان عُرسًا جميلًا ملأه الأحباب وأقارب الأقارب, لم يكن حفلًا صاخبًا لا نعرف فيه أحدًا, فلقد اقترحتْ عليَّ فريدة أن نوفر تلك المبالغ الطائلة ونبدأ حياتنا بمهمتنا الأساسية التى خُلقنا لها ولأجلها, نعبدُ الله ونقدسه ونحبه ونحب من يحبه, اقترحتْ بزيارة بيت الله وقِبلتنا فوافقتُ على الفور دون تفكير, نِعم الزوجة الصالحة هي, نِعم المرأة زوجتي, نِعم الأنثى فريدة..

كنتُ قد ذهبت إلى هناك قبل ذلك مع ياسين ورحمة ولكن هذه المرة مختلفة تمامًا, وجدتني أقف أمام بيت الله وأقول «ها قد أتيتك بها.. الشكر لك يا ربي عليها», سمعتني وابتسمت ودعت في سرها دعاءً لم أسمعه, فهي دائمًا ما تدعو لي دون أن أعلم بماذا تدعو, ولا تخبرني حتى وإن سألتها, تقول بأن ذلك بينها وبين الله

ولا ينبغي لمخلوق أن يتدخل بين مخلوقٍ آخر وخالقه, فكم هو جميلُ أن تعلم بأن هناك بشرًا يدعون لك وأنت غائطٌ فى النوم لا تدري, فلا تندهش بحظك الطيب الوفير فجميعها دعواتٌ واستجيبت..

رجعنا وقد بدأت أشعر بضعف عيني غير المسوغ!, تجاهلته ظنًا مني أنه من قلة النوم وكثرة الكافيين, ولكنه بدأ فى التزايد وبدأت فريدة أيضًا بالشعور بذلك وتشاجرت معي بسبب إهمالي وضرورة ذهابي إلى طبيب ولكني كنت أرى أن الأمر لا يوجب كل ذلك القلق, لم تلقَ مني فائدة كالعادة فانتظرت حتى ذهبنا سويًا إلى بيتنا القديم وأخبرتْ ياسين ورحمة بذلك, أتذكر صدمتهما جيدًا ولكنهما لم ينطقا بشيء, ولأول مرة يجبرني والدي على شيء, أجبرني أن أذهب للطبيب وأن فريدة محقة, لم أعلم سبب قلق ياسين ورحمة بهذا الشكل حينها حتى أن فريدة نفسها اندهشت من ذلك, ولكنى الآن أعلم..

❋❋❋❋❋

أخبرني الطبيب أني لم يكن عليّ أن أحب أبي لكل هذه الدرجة, لم يكن عليّ تقليده فى كل ما يفعل, فى مشيته وحركاته وكلماته وثقافته وكل شيء, فأنا جزءٌ منه ولكني لم أكن أعلم بأنه هو الآخر جزءٌ مني..

شابٌ يحمل مرضًا وراثيًا خطيرًا تسبب فى فقدان أبيه لحبيبتيه, ماذا عساه أن يفعل؟!, عليه أن يبكي ويبكي وعندما ينتهي من البكاء يبتدئ بكاءًا آخر, ولكني لم أفعل ذلك, ففور ما أخبرني الطبيب بذلك ابتسمت, قابلت الوجع والألم بصدرٍ رحب, ولكن فريدة كان تبكي وبشدة, لم أنهاها عن ذلك كما أفعلُ دائمًا, تركتها تُنهي حزنها على ما سمعت حتى تقف فى ظهري صلبةً كما اعتدت عليها, فأنا أعلم أنى على أبواب حربٍ وهي جيشي وجنودي وأسلحتي وكل شيء..

قال الطبيب وهو يوحي بابتسامةٍ مصطنعه تحمل أملًا خائبًا:

- يمكن لنا أن ندرك الأمر من بدايته.. فلقد تقدم الطب كثيرًا عن زمن أبيك.. هناك عمليةٌ جراحية يمكن لنا خلالها أن نعالج المياة البيضاء قبل أن تكثر وتنفصل الشبكية عن بعضها.

أمسكتْ فريدة بيدي وربتت عليها بشدة, شعرتُ بخوفها وبقلقها فابتسمتُ أكثر لتطمئن, وضعتُ يدي على يديها وأمأت برأسي موافقًا فهدأتْ, نظرتُ للطبيب قائلًا:

- موافق.. فالله معنا ولن يتركنا أبدًا.. وإن كان الخير في فقدانها فأهلًا بالخير وأهله.

أتذكر نظرة فريدة لي حينها, قبَّلت يدي ورأسي ثم قالت وصوتها ما زال به أُثر البكاء:

- لن يضيعنا الله يا حبيبي.. لن يضيعنا الله أبدًا.

قبل العملية بيومين, تملكني هاجس الكتابة بشكلٍ غريب, ولكن عيني لم تكن لتساعدني على ذلك فناديت على فريدة لتكتب لي ما سيمليه علي ملكُ الوحي الخاص بي, تقبلت طلبي بحنانٍ بالغ وجلستْ بجواري تكتب ما أقول..

«أخبرني الطبيب أني عالقٌ بين النور والظلام, أُقف فى منتصف طريقٍ لا أرى آخره, أُمسكُ بيدي وردةً وعليّ محاربة السموم بعبيرها, أخبرني عن أشياءٍ بدت لي حقيقيةٌ كخيالكم الذي أتحكم فيه الآن..

وأنكرَ كل الحقائق التي أدينُ بها منذ وُلدت؛ فلقد قال لي بأن الطوفان قد طال سفينة نوح فأغرقها, وأن يوسف لم ينجُ من الموت وقتله إخوته, وأن كبش إسماعيل مازال على قيد الحياة, وأن موسى قد تناول الذهب بدلًا من الجمر, ونار إبراهيم لم تنطفئ, ودآبة سليمان لم تأكل مِنْسَأَتَهُ فلم تقع عصاه, وأن يونس بقي وحده فى السفينة ولا يعلم شيئًا عن حوته, وأن عيسى قد صُلب ولم يُرفع إلى السماء, أخبرني الطبيب أن آدم يُصاب بحساسيةٍ من التفاح فلا يأكله, أخبرني أننا سنولد قريبًا فى الجنة فلننتظر..»

❋❋❋❋❋

الأجواء مضطربة إلى حدٍ ما, رائحة الخوف تتناثر فى الأرجاء, أصوات خفقات ياسين ورحمة تستقر فى أذني, ويدا فريدة تعزلني عن كل ذلك, لم يتبقَ سوى دقائق وأدخلُ غرفة العمليات لتُجرى تلك العملية الجراحية الدقيقة, مرّوا سريعًا ووجدتُ نفسي فى غرفة العمليات «ب» فابتسمتُ, رأيتُ حولي لفيفٌ هائلٌ من الأطباء والمستشارين, وآخر يستعد للتصوير بكاميرا «فيديو»!, علمتُ حينها أن العملية نادرة وخطيرة جدًا فابتسمت أكثر..

قال لي طبيب «البنج» عندما رآني ابتسم:

- ظِل كما أنت.. وأعدد من واحد إلى عشرة.

بدأتُ فى العدِّ وما إن وصلت إلى أربعة حتى فقدت الشعور بكل شيء, ولا أتذكر ماذا حدث حتى خرجتُ بعدها بثلاث ساعات..

الأجواء مضطربةً أكثر, الخوف رائحته أقوى, وأنا لا أشعر بشيء, حتى دخل الطبيب وقال بصوتٍ لا أعرف أكان متفائلًا أم خائفًا, كان مزيجًا من الاثنين:

- معاذ.. يجب أن تعلم بأن القدر قدر ولابد أن نرضى به.. لقد فعلنا ما في وسعنا والأمر كله لله.. سنزيل الغمامة من علي عينيك الآن ولابد لك أن ترضى بكل ما يقسمه الله لك.

لم أُعقب على ما قال ليبدأوا فى نزع الغمامة من على عيني ثم انتظروا ردة فعلي, ثوانٍ مرت وهم ينتظرون شيئًا يحدث مني ولا يعلمون أني أنتظرُ

معهم, ولكن؛ لم يحدث شيء, فابتسمتُ, لم يفهموا شيئًا من تلك الابتسامة عدا فريدة, سمعتُ صوت بكائها يُعلمهم بما لم أقوله, ليعلوا صوت أمي بالبكاء أيضًا, وصوت إغلاق الباب أيضًا يبدو أن الطبيب قد خرج, وصوت ياسين كان بمثابة الرياح الباردة فى شدة الحر, سمعته يقول «اللهم لك ما اخذت.. ولك ما أعطيت.. لك الكل والكل منك.. لك الكل والكل منك»..

عاد الأسود يهيمن ثانيةً على كل شيء, ولكن تلك المرة كانت سيطرته حقيقية لا متخفيةً في الحزن والظلام, أصبحتُ كفيفًا, نفذت قوتي وحيلتي, لم أقوى على تحمل كل ذلك فسقطت, سقطتُ وقدماي تنهرني من شدة الوقوف طويلًا..

هناك لحظاتٌ دائمًا ما ينفرد الحزن بنا فيضعفنا ويكسرنا, كانت تلك هي أصعب الفترات فى حياتي, لم أكن أتحدث كثيرًا, لم أكن أتحدث من الأساس, مللتُ من نصحهم لي بالصبر, لا أحد يشعر بذلك أبدًا, لا يعلمون شيئًا ولا يشعرون بشيء, لا يدركون معاناتي ووجعي أبدًا, حتى فريدة, لم تكن قادرة على فعل شيء لي, حُزنها عليّ قد أبعدها عني من دون أن تقصد, حتى شعرتُ بأن ألمي قد وصل حد الحلق وحان وقت زهق الروح لم يعد هناك كيلًا ليفيض, وفي تلك الفترة غالبًا ما تكون القرارات خاطئة وبطبيعة شخص مثلي دائمًا ما تكون القرارات التى تُتخذ فى ذلك الوقت ظالمة, وأول المظلومين هو أنا..

- أعلم أنكِ لا زلتي صغيرة وجميلة.. والعمر كله أمامك.. ولم تقترفي ذنبًا حتى تعاقبين عليه بالبقاء طوال حياتك مع رجل كفيف.. أتعلمين! .. ربما لم أقترف أيضًا ذنبًا لأكون ذلك.. ولكن لا يهم.. لذلك فأنا أُحلك من جميع الروابط التى بيننا.. إن شئتي الذهاب فاذهبي لن أمنعك من ذلك.

لم أسمع ردها, ولم يتسنَّ لي رؤيتها فلم أعلم ماذا كان رد فعلها بعد ما سمعت ذلك, صمتت كثيرًا ثم قالت وهي تبكي بكاءً شديدًا:

- انتهيت؟.. قلتَ ما تريد قوله؟!.. إذن دعني أتحدث ولا تتكلم أبدًا.. أبدًا يا معاذ.. أتريد مني أن أتركك؟!.. بكل هذه السهولة؟!.. أنت لا تعلم شيئًا أبدًا.. فأنا ليس لي بيتٌ سوى هنا.. لا أنام إلا بين ذراعيك.. لا أرى مستقبلا إلا بك مهما كان ذلك المستقبل.. كيف لك أن تقول لي ذلك أخبرني!!!..

لن أتركك يا معاذ مهما حدث.. وإن أردت أنت ذلك فلن أسمح لك بتركي أبدًا.. لقد تعاهدنا على العيش سويًا.. في السراء والضراء.. فى الخير والشر.. وإن كنا شركاء فى الفرح فسوف نتشارك فى الحزن أيضًا.. أليس هذا عهدنا وميثاقنا يا معاذ؟!.. أنسيت؟!!.. إن هذا البيت بيتي.. وأنت رجُلي وقوتي وكل شيء.. لأ أقوى على العيش من دونك ولا لحظة واحدة.. أُقسم لك أني لا أقوى على العيش من دونك أبدًا..

صمتت قليلًا بعدها ثم ارتمت بين ذراعي فاحتضنتها بكل ما أوتيتُ من ضلوع, أويتُ إلى موطني الحقيقي, ومنذ تلك اللحظة وأنا مُسَلمٌ تمامًا للقدر, كانت لحظات ضعفٍ وذهبت لتأتيني قوةً بدلًا منها, أخبرتني حينها أننا لابد أن نواجه كل ذلك أقوياء كما عودتها, وإذا كانت يدانا متصلةٌ ببعضها فماذا يكون للسحر الأسود بعد ذلك؟!, فالظلام لا يمكنه طرد الظلام, النور فقط يمكنه فعل ذلك، والكراهية لا يمكنها طرد الكراهية, الحب فقط يمكنه فعل ذلك .

وافقتها وتركت لها يدي تسير بي فى الطرقات التى تشاءها, أما عن العمل فنحن نعمل بمجال الهندسة سويًا, وبعد ما أصبحت كفيفًا أصبحت الكتابة هي شغلي وعملي ومصدر رزقي, فهي الوظيفة التى طالما تمنيتها, فكم هو طيبٌ أن تعمل ما تحب دون أن تصبح ما تحب, ولكني لم أكن أكتب بيدي, بل كانت فريدة تجلس برأسي تتلقى الوحي وتكتب هي, فكانت هي جمهوري الذي ينتظر ما أكتبه دائمًا, وتنتظر حتى أنهي ما أمليه عليها وتكتبه وبعد ذلك تخبرني عن رأيها, لا تقاطعني أبدًا حتى وان كنتُ أكتب لها, وكانت تعلم أنها هي الوحيدة التى جاز لها أنها تراني وانا أكتب, فللكتابة حرمةٌ شأنها شأن جميع الأعمال الروحانية, ورأيها عندي كفرض الكفاية؛ إذا فعله البعض سقط عن الكل, فإن نال ما كتبته استحسانها فلا رأي مهمٌ بعدها إذن, فكانت فريدة هي كل شيء, فلقد تعلمت كيف أرى الله منها؛ في يديها التي أتوكأ بها على عصاي، في عينيها التي تتجلى

بعظمة الله ومهابته فأرى كل شيء كما يريدني أن أرى، لقد رأيت الله فيها كما يريدني أن أراه, فالله رحيمٌ, الله رحمنٌ, الله جميلٌ يحب الجمال وما للجمال رسولةٌ سواها, فهي لا تشبه أحدًا.. فهي فريدة.

أُنا..

أخبرتني العرافة أني لست براهبٍ كما زعمت، وأن هناك راهبة في الضفة الغربية من قِبلتي تخطئ أيضًا في اعتقادها أنها راهبة، أحببنا الله فجعل المحبة فينا هدىً يقطن في قلوبنا فنحبنا دون أن يرى أحد منا الآخر. لم أصدقها! ثمة درويشة قد بلغت من العمر أرذله تخبرني أن تلك الأقفال التي برعت في إحكامها على قلبي هناك من يملك مفاتحها، تلك الأسوار التي لا أخر لها ولا أول هناك من يختلق بابًا ويعبر خلالها بكل سهولة!، كيف بتلك الخرِفة أن تخبرني أنني أمتلك جناحين ويمكنني الطيران! كيف لها أن تخبرني بأنني لم ارَ الدنيا بعد وأن هنالك حياة لم أكن أسمع عنها مطلقًا! إلى الآن.. لا أعلم كم كأس من الخمر قد تناولته قبل نومي لأرى تلك العرافة تأتي من بعيد وهي تمسك بيدكِ وتشير إليّ، وإن كنت فاسدًا اتجرع الخمر فكيف بحورٍ مثلك لا تميز بين الخمر والعسل أن ترى ما رأيته في اليوم ذاته، في الوقت ذاته، وقد كان الفجر رجلًا يشمر عن ساقيه للوضوء..

عجبًا لكِ يا صغيرتي، تميلين على كتفي وتطلبين مني أن أروي لك ذلك رغم أنك تعلمينه جيدًا، ولكني مستعدٌ دائمًا لأرويه طيلة حياتي ما دمتي هنا.. في مكانك الذي حفظته لكِ حتى ظننت أني راهبٌ.. راهب قد رأى محبة الله في عينيكِ فأحبكِ, وما سبيل راهب مثلي إذا أحب الله شيئًا إلا أن يحبه.

وربما نحن في زمنٍ قد أصابه العقم فلم يعد يؤمن بالمعجزات, وأصبح يؤمن بالقوانين والاستنتاجات فقط.. ولكن! إذا ما علم يومًا أنكِ قد هربتِ من أسراب الحور التي تنتمين لهن واختبأتي في ثوب حواء! هل سيعلن حينها بطلان قوانينه ويفرضكِ معجزة هي «الفريدة»من نوعها..

أتمنى ذلك.

معاذ – فريدة

******

صمتت..

نظرت إلى عينيه التائهتين في ذلك الفراغ المزعج..تركت أناملها الدافئتين تقبض على يديه الباردتين لتطمئنه.. ولكن لا شيء يتغير.. ما زال لا يراها رغم أن أنفاسها تكاد تخرج من رئتيه لشدة دنوها من رأسه.. ما زالت تستند إلى كتفه وتحلم بأحلامٍ كثيرة تعلم أنه لا يشاركها إياها.. ولكنها تكتفي فقط بأن تحلم .

كم هو قاسٍ أن يقتصر حلمك في بيت صغير مع شخصٍ تقتصر عليه كل ما هو داعٍ للحياة, ولكن ذلك الشخص قد استئصل من خياله أن يبقى بجانب أحد.. أصبح لا يحلم.. وإذا حلم! فستكون كل السبل تؤدى إلى العزلة..

تعلم بأنه تائه.. ولكنها لم تسأل يومًا لأنها تعلم أنها لن تجد إجابة تطفئ نيران قلقها.. تتذكر ذلك اليوم الذى رأته فيه في ذلك المكان وبتلك العينين التائهتين أيضًا ينفخ بدخان سيجارته ليصنع هالةً من الغموض تجذب إليه كثيرًا من نسل حواء.. تتذكر جيدًا كم كان ممتعًا أن تقضي ساعات تنظر إليه وهو لا يلقي لها بالًا.. كم كان ممتعًا ذلك! وكم هو قاسٍ الآن ..

حبيبة – آسر

شعرتُ أن ثمة شيء ما يحدث لم استطع به خبرا! ماذا يحدث !! أيا تُرى قد أسلم اليهود ؟! أم أن العرب قد أرسلوا قنبلة نووية فتهتكت بها أمعاء أمريكا!! ما هذا الحدث الجلل الذي يفعل بي هكذا! أخذت شهيقًا هادئًا عندما وجدت الساعة تدق بالثانية عشر وتعلن أننا أصبحنا في يومٍ أعتقد أنه الأهم بين إخوته، إنه الحادي عشر من يوليو فلا داعي للرهبةً إذن .. ها انتي الآن، في مقتبل عقد جديد، وقد أضفتِ لقوائم الذين تخطوا حاجز الستين بعضًا من سحرك الهادئ، ها نحن الآن، نعد أدراج رحيلك بكمٍ هائل من الذكريات وكل ما اقترفتيه في أعوامك السابقة إلى مكانٍ آخر يرحب بكِ كثيرًا، فأهلًا بكِ يا عزيزتي في عالم الستين ..

أعتقد أنك تعلمين جيدًا أين أنتِ بداخلي، وأعلم أيضًا أنك ترين أنكِ تشبهيني أكثر مني، ولكن ما أعتقد أنك تجهلينه أن الله جعلك كاسمكِ، لوحةً مأخوذةً بيد فنان محترف قد تاب بعدها واعترف بأنه ما كان ليرسمك إلا إذا خضع للجن ليساعدونه في فعل ذلك العمل الشاق، أعذره تمامًا وأعذر كل من يراكِ ويصبأ عن ملته ليتبع ما تتبعين يا عزيزتي .. كل عام وأنتِ كما أنتِ.. تلك الرحمة التي وهبها الله لنا حين استحكمت حلقات الدنيا..

رحمة.. هكذا اسمك، هكذا أنتِ .

ياسين – رحمة

هو..

لم أسمع ردها, ولم يتسنَّ لي رؤيتها فلم أعلم ماذا كان رد فعلها بعد ما سمعت ذلك, صمتت كثيرًا ثم قالت وهي تبكي بكاءً شديدًا:

- انتهيت؟.. قلتَ ما تريد قوله؟!.. إذن دعني أتحدث ولا تتكلم أبدًا.. أبدًا يا معاذ.. أتريد مني أن أتركك؟!.. بكل هذه السهولة؟!.. أنت لا تعلم شيئًا أبدًا.. فأنا ليس لي بيتٌ سوى هنا.. لا أنام إلا بين ذراعيك.. لا أرى مستقبلا إلا بك مهما كان ذلك المستقبل.. كيف لك أن تقول لي ذلك أخبرني!!!.. لن أتركك يا معاذ مهما حدث.. وإن أردت أنت ذلك فلن أسمح لك بتركي أبدًا.. لقد تعاهدنا على العيش سويًا.. في السراء والضراء.. فى الخير والشر.. وإن كنا شركاء فى الفرح فسوف نتشارك فى الحزن أيضًا.. أليس هذا عهدنا وميثاقنا يا معاذ؟!.. أنسيت؟!!.. إن هذا البيت بيتي.. وأنت رجُلي وقوتي وكل شيء.. لأ أقوى على العيش من دونك ولا لحظة واحدة.. أُقسم لك أني لا أقوى على العيش من دونك أبدًا..

صمتت قليلًا بعدها ثم ارتمت بين ذراعي فاحتضنتها بكل ما أوتيتُ من ضلوع, أويتُ إلى موطني الحقيقي, ومنذ تلك اللحظة وأنا مُسَلمٌ تمامًا للقدر, كانت لحظات ضعفٍ وذهبت لتأتيني قوةً بدلًا منها, أخبرتني حينها أننا لابد أن نواجه كل ذلك أقوياء كما عودتها, وإذا كانت يدانا متصلةٌ ببعضها فماذا يكون للسحر الأسود بعد ذلك؟!, فالظلام لا يمكنه طرد الظلام, النور فقط يمكنه فعل ذلك، والكراهية لا يمكنها طرد الكراهية, الحب فقط يمكنه فعل ذلك

أمسكت بيدي ووضعتها على بطنها وهي تقول بدلالٍ يسحرني:

- وحتى هذا أيضًا لا يمكنه تركك..

لم أفهم ما تعنيه، فأردفتْ وصوت بكائها يتحول إلى زقزقات الكناريا وقت الغروب:

- ونحن ببيت الله دعوته أن يرزقني بطفلٍ منك.. وبعدها لن أطلب شيئًا أبدًا.. يكفي ذلك.. والله يكفي ذلك..

سقطت دموعي رغمًا عني فمسحتها وأكملتْ:

- وعلمت أني حامل يوم العملية.. كنت سأخبرك ولكنك تعلم أن حزني عليك قد كان ليقتلني يا معاذ.. وأعتذر إن كنتُ قد قصرت فى حقك حتى جعلتك تقول ما قولته منذ قليل ولكني أقسم لك أن آلام الحمل تشتد عليّ كثيرًا ويكون ضروريًا أن أذهب للطبيب ولا أذهب فيشتد التعب عليّ.. وأخاف عندما أسمع أن الحزن يؤثر على الجنين فأحاول الصمود من دونك وأعود إليك قويةً أقف في ظهرك كما العادة.. ولكني لست قويةً أن أشعر لذلك الحد الذي أشعر فيه بالراحة فى مكانٍ لستَ فيه.. ولا أقوى على فعل شيءٍ دونك.. فأنت قوتي وقُوتي وكل شيء.. فلقد زرع الله حبك بقلبي وثبت جذوره فنمى كيفما شاء.. فلا تحزن يا حبيبي إن الله معنا..

أُنا..

اقتربت دقيقتان على بداية العرض، القاعة تعجُ بالمشاهدين، والممثلون الحقيقيون يستترون بين الصفوف فلن تميزهم، الكاميرات متأهبةٌ كالمدافع، كلٌ مسيرٌ لما كتبته له..

فُتح الستار فصفق الجميع لمن يعتلون المسرح، لم أُصفق معهم، فدوري أهم، لم يأتِ دوري بعد..

تعاطف الجمهور مع الشيخ الكفيف وأحبوه، وأحبوا حبه لزوجته، رأيت ذلك فى أعين اثنين يجلسان فى الصف الأخير، يمسكان بيدي بعضهما التي أهلكتهما التجاعيد، يُقبل رأسها، وتبتسم..

كرهوا تلك الجميلة التى أنكرت يد البطل وآمنتْ بكومبارسٍ لم يصعد المسرح لمرةٍ واحدة..

أحبوا العرافة لتمثيلها الصادق، لا يعلمون أنها عرافةٌ فعلًا وكل شيء يحدث على خشبة المسرح حقيقيّ، حقيقيٌّ جدًا..

أشفقوا على البطلة التى أحبت البطل وتمنوا لو أوقفوا العرض لثوانٍ وأخبروه بأنها تحبه..

بكوا لبكائهم، فرحوا لفرحهم، غنوا معهم، تعاطفوا معهم، اجتمعوا على كل شيء سويًا الا عندما تأتي سيرة الغراب الأكبر وجنوده، حينها ينقسمون..

انتهى العرض، والجمهور متأهبٌ ليرى المحرك الرئيسيّ لكل شيء يحدث على خشبة المسرح، انتظروا كثيرًا وكثيرًا ولم أظهر، ها هو دوري الذي انتظرته طيلة حياتي، أتأمل التصفيق الحار وأغمض عيني متذكرًا جميع ما مررت به وأبتسم، أبتسمُ كأنني قويًا، ولكني قويٌ فعلًا، وسأثبت ذلك حالًا..

صعدتُ على المسرح، صُوبت الأضواء تجاهي، لم أفرح، ولا أعلم لماذا، ربما بسبب ضعف عيني الذي جعلني أرى الأضواء نجومًا والبشر كواكبًا، لا أعلم حقًا، ولكني في مكاني الذي حاربت للوصول اليه.. هذه هي النهاية التى قلت يومًا أني سأصل إليها وحدي.. وهذا هو اللاشيء الأخير..

وهذا هو أنا.. ياسين معاذ ياسين.

تمت بحمد الله

إهداء

قبل ما أكتب الإهداء ده فكرت إني أهدي الرواية دي لكل الناس اللي وقفوا جنبي لحد ما الرواية ظهرت للنور.. لقيت إنهم كتير وانا عارف إنهم هيعرفوا نفسهم وهما بيقروا الكلام ده دلوقتي.. لكن مكنش ينفع الإهداء ده يبقى لحد غيرك.. جايز هما ساعدوني في حلمي لكن أنت ساعدتني أكون أنا.. حطيت رجلي على أول الطريق وأنا بكمل أهو ..

ربنا يكافئك على أد تعبك عشاننا طول السنين دي..

شكرًا ياعمو ♥

أ/ مصطفى عبد العال

شكر خاص

الكوتش/ سيد شعبان

الشيخ/ جمال عبدالصمد

الكاتب/ أحمد المنزلاوي

المصور/ حسام جمال

الرواية دي منكوا وليكوا .. شكرًا.

للتواصل مع الكاتب

وإبداء الأراء عن الرواية

https://www.facebook.com/aboali100